٢٣٤

HARLEQUIN®

روايات احلام

ستيفاني

ديبي ماكومبر

WWW.ELROMANCIA.COM

مرمورية

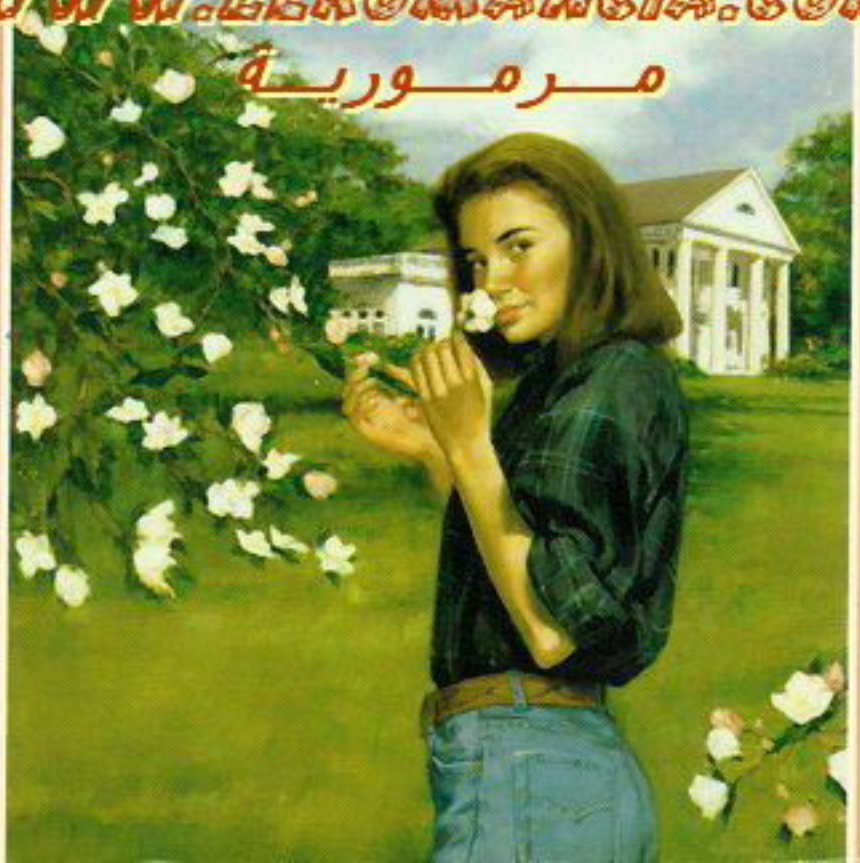

ستيفاني

ستيفاني عادت.. والعريس، برأي أبيها، موجود: إنه تشارلز توماسيلي!

لكن هذا مستحيل! فتشارلز هو سبب رحيلها منذ ثلاث سنوات، وهي لم تنسَ إذلاله لها واستهزاءه بها. ولن تغفر له ذلك أبداً... أبداً! فألم إهانته لها ما زال يعتصر فؤادها ويعذبها، رغم مرور السنوات. وهي على استعداد لفعل أي شيء كي تتجنب لقاءه.

كيف تستطيع إقناع أبيها، المريض بالقلب، بأن أحلامه جنونية؟ وأن تشارلز قد يكون السبب في رحيلها من جديد.. وهذه المرة إلى غير رجعة!

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س.	السعودية: ١٠ ريال
الأردن: ١,٥٠ دينار	مصر: ٥ جنيه
الكويت: ٧٥٠ فلس	المغرب: ١٥ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم	تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال	عمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-059-1

ديبي ماكومبر

كاتبة أميركية تعيش في ولاية «واشنطن». لديها أربعة أولاد، جميعهم في سن المراهقة، إضافة إلى عدد من الحيوانات الأليفة من بينها عدة قطط وكلب. بدأ نجم «ديبي» يلمع في عالم الكتابة منذ طفولتها، حين نسخ شقيقها دفتر مذكراتها وباعه. لكن قرّاءها ازدادوا كثيراً منذ ذلك الوقت!

تقول إنها كتبت رواياتها الأولى لأنها أغرمت بالروايات العاطفية وأرادت أن تكتب رواية خاصة بها. تحب ديبي أن تتواصل مع القرّاء.

يمكنكم أن تراسلوها على العنوان التالي:

P.O.Box 1458
Port Orchard,
Washington 98366,USA

١ ـ البيت أخيراً

جرّت ستيفاني بلومفيلد حقيبة سفرها الثقيلة فوق عتبة الباب الأمامي للبيت الكبير ذي الأعمدة البيضاء. . . كانت تتقدم بهدوء وهي تحاذر ألا توقظ شقيقتيها رغم أنها تخالهما في المستشفى.

لقد أمضت اليومين السابقين، تتنقل من مطار إلى آخر ومن طائرة إلى أخرى، حتى أنها لم تعد تذكر ما إذا استغرق الوصول إلى بيتها ثلاثة أيام.

اتصلت بها أختها الصغرى في إيطاليا قبل أسبوع لتخبرها أن أباهما أصيب بذبحة قلبية. لم يكن الارسال واضحاً ووجدت صعوبة في سماع نورا، ولكن الهلع في صوتها أنبأها بأن حالة أبيها الصحية خطيرة ويجب أن تعود إلى البيت بسرعة.

كانت ستيفي مقيمة في إحدى ضواحي مدينة روما، وتتابع دراستها في الجامعة، ضمن برنامج خاص لتعلم اللغة الإيطالية ودراسة عصر النهضة الأوروبية. وخلال تلك السنوات الثلاث، جالت في أنحاء أوروبا كلها من دون أي مشقة، وها هي الآن مرغمة على العودة إلى وطنها على وجه السرعة، ولكن من سوء حظها كانت المطارات مغلقة نتيجة لإضراب شامل في قطاع النقل أدى إلى شل الحركة كلياً في إيطاليا. ولم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً إزاء ذلك، خاصة وأنها كانت تقضي، في ذلك الوقت، عطلتها لدى عائلة صديقة لها، في قرية صغيرة نائية، تبعد مئات الكيلومترات عن روما.

استغرقت رحلة العودة إلى موطنها عدة أيام شعرت وكأنها دهر، مما جعل الأسبوع الفائت من أسوأ الأسابيع التي مرت في حياتها. وخلال هذا الوقت بقيت على اتصال مع شقيقتيها. وفي الاتصال الأخير، أخبرتها نورا أن والدهن بات بخير، ولم يكن من الصعب عليها أن تقرأ بين السطور وتدرك نبرة الخوف في صوت نورا. فشقيقتها الصغرى لا تحسن تماماً إخفاء مشاعرها أو الحقيقة. ورغم أنها حاولت طمأنتها، فقد كانت ستيفي مقتنعة تماماً أن حالة والدها الصحية قد ازدادت سوءاً. فقررت حينها الاتصال بأشخاص سيئي السمعة لتبيعهم مقتنياتها الشخصية القيّمة بأسعار بخسة جداً، وتحصل على ما يكفيها من المال للخروج من إيطاليا بأي وسيلة ممكنة. والله وحده يعلم كم كانت رحلة العودة ستستغرق من الوقت لو لم تلجأ إلى تلك الخطوات المتهورة.

كانت ستيفي متلهفة لسماع الأخبار عن أبيها، بعد أن مضت يوماً كاملاً في مطار طوكيو تحاول الحصول على مقعد في الرحلة المتجهة إلى الولايات المتحدة.

فتحت الباب وخطت بهدوء داخل المنزل الساكن. كان الإرهاق قد بلغ منها مبلغاً، والقلق أضناها ولكنها شعرت فجأة بالجوع وقد نسيت متى تناولت آخر وجبة طعام.

أنزلت حقيبتها الثقيلة جداً، ووقفت في البهو تتنفس الصعداء. ها هي، أخيراً، في البيت.

كانت غرفة والدها إلى يمينها، فشعرت على الفور بالانجذاب إليها. تمهلت عند الباب وأضاءت النور ثم وقفت تحدق في الغرفة، وكل ما فيها يحمل طابع والدها. المدفأة الضخمة التي تغطي أحد جدران الغرفة بكامله، والمكتبة الكبيرة التي تعج بالكتب من شتى الأنواع والأشكال.

نظرت إلى مقعده الواسع الذي تجعد جلده بفعل سنوات الاستعمال. وأغمضت ستيفي عينيها وتنشقت بعمق رائحة الكتب والجلد القديم وتبغ

الغليون الحريفة واللذيذة. ولم تشعر يوماً بالشوق إلى والدها أكثر مما شعرت في تلك اللحظة.

بدا لها أن حضوره يملأ هذا المكان، وتتردد بين جدرانه أصداء ضحكاته القوية. راحت ستيفي تتخيله جالساً وراء مكتبه المصنوع من خشب الكرز، ودفاتر الحسابات مبسوطة أمامه وغليونه مُسند إلى منفضة السيراميك، تلك المنفضة التي صنعتها له خلال عطلة الصيف، عندما بلغت الحادية عشرة من عمرها.

استرعت انتباهها صورة أمها... لم يكن باستطاعة دافيد بلومفيلد أن يترك لبناته إرثاً أجمل من الحب الذي جمعه مع أمهن. فقد تغير كثيراً بعد موت غريس، حتى رسائله لها كانت تؤكد لها ذلك.

ولعلها لمست تلك التغيرات لمس اليد عندما أتى لزيارتها في فصل الربيع المنصرم إذ أن ولعه الشديد بالحياة، الذي كان دائماً جزءاً من شخصيته، بدأ يتلاشى، شهراً بعد شهر لينطفىء بعدها كلياً.

حتى رسائله أصبحت أشد إيلاماً لها، إذ بدت خالية من الروح. وتحول دافيد بلومفيلد، بعد رحيل زوجته إلى إنسان خاوٍ. مثله مثل ذلك الكرسي هناك، الكرسي القديم الذي يجلس عليه للمطالعة.

رفعت ستيفي نظرها إلى الصحيفة الممدودة على الوسادة وشعرت وكأن والدها سيدخل من الباب، في أي لحظة، ويجلس على كرسيه المفضل ويعاود القراءة.

غير أنه لم يفعل.

خطر في بال ستيفي أنه قد لا تتاح له الفرصة للجلوس ثانية في هذه الغرفة والتقاط أحد كتبه المفضلة وتصفحه بتأنٍ حتى يجد الصفحة التي يريد قراءتها... قد لا تراه أبداً بعد اليوم جالساً قبالة المدفأة، وغليونه في يده، فيرفع نظره إليها عندما تدخل الغرفة ويبتسم.

فانقبض قلبها من الألم وأحرقتها الحاجة للتعبير عن مشاعرها...

ولكنها منذ تلك الليلة مع تشارلز توماسللي تعلمت أن تكبح جماح مشاعرها.

أبعدت هذه الذكرى المؤلمة عن ذهنها، فتشارلز ذكرى مؤلمة في ماضيها من الأفضل نسيانها أو على الأقل تجاهلها. فمنذ شهور طويلة لم تفكر به وهي تأبى أن تفعل ذلك الآن. آجلاً أم عاجلاً، ستضطر إلى لقائه، ولكن عندها ستدعي أنها تجد صعوبة لتتذكر من يكون... وكأنه مجرد إنسان تعرفت عليه صدفة وليس الرجل الذي حطم قلبها. وبدا لها ذلك الحل الأنسب لمعالجة هذا الوضع.

وإن أصر على تجديد صداقتهما، وهو أمر بعيد الاحتمال، فستثبت له أنها نضجت، وأصبحت متحذلقة ومتسعة الآفاق، وعندها سيندم على معاملته السيئة لها وعدم مبالاته بها.

سمعت ستيفي صوتاً صادراً من الردهة فخرجت من الغرفة لتجد نورا عند أسفل الدرج.

صاحت نورا وهي تندفع لمعانقتها: «ستيفي؟ يا إلهي، لقد عدت إلى البيت!».

نزلت فاليري، شقيقتهما الكبرى، الدرج قفزاً وهي تصرخ فرحاً، وعباءتها القطنية الطويلة تتراقص حول قدميها.

صاحت ڤاليري وهي تحيط شقيقتيها بذراعيها: «ستيفي، تسعدني عودتك إلى البيت. متى وصلت؟ لماذا لم تعلمينا بموعد وصولك حتى نستقبلك في المطار؟».

- وضعوني على لائحة الانتظار خلال معظم مراحل الرحلة ولم أكن متأكدة من موعد وصولي. حالفني الحظ بالعثور على حمالين في المطار ثم استقليت سيارة أجرة.

تنفست بعمق وأضافت: «وأنا سعيدة جداً لأني هنا».

- وأنا أيضاً.

ردت فاليري وهي تمسح الدموع عن وجنتيها. كانت ڤاليري مثالاً عن البرودة، ورؤيتها على هذه الحالة خير دليل على خطورة حالة والدهن الصحية.

انتقلن إلى المطبخ، وانهمكت ڤاليري بإعداد الشاي. كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر، ولم تدرك ستيفي أن الوقت متأخر إلى هذا الحد، وبالكاد كانت تتذكر متى نامت آخر مرة على سرير... ربما مضى أربعة أيام على ذلك.

- كيف أصبح أبي؟

طرحت السؤال الذي كانت تتشوق إلى طرحه منذ لحظة دخولها البيت... السؤال الذي كانت تخشى أن تطرحه.

ردت نورا بصوت ناعم ينم عن الابتهاج: «تحسنت حالته بشكل ملحوظ. لقد أشرف على الموت يا ستيفي، أصبنا أنا وڤاليري بالهلع، ولم يكن بوسع الدكتور وينستون تأخير العملية الجراحية، فاجتاز أبي عتبة الخطر! ولكن..».

- ولكنه..

أخذت ڤاليري الكلام عندما وجدت نورا مترددة.

- ولكنه ماذا؟

قاطعتهما ستيفي. ورغم أنها كانت مسرورة لسماع أن والدها قد نجا من أزمته الصحية، فقد تعجبت لترددهما في الكلام.

- هيا، أخبراني.

ألحت عليهما وهي مصرة على معرفة الحقيقة.

تطوعت نورا أخيراً: «من الواضح أن أبي أشرف على الموت».

- ولكن أليس هذا الأمر طبيعياً خاصة لمن يخضع لعملية جراحية مماثلة؟ لقد قرأت روايات عن الأشخاص الذين يجتازون النفق المظلم ليخرجوا منه بعد ذلك إلى النور.

ردت ڤاليري وهي تنتفض: «أنا لا أعرف كم من الطبيعي التكلم مع أحد من عالم الأرواح..».

تبرعت نورا مرة ثانية بإعطاء المعلومات: «يدعي أبي أنه تكلم مع أمي».

ـ مع أمي؟

شعرت ستيفي بالحيرة.

هرعت ڤاليري حافية القدمين عبر المطبخ لتصب الماء الذي أخذ يغلي في إبريق الشاي، ثم وضعت الأكواب والسكر على صينية وحملتها إلى الطاولة وقدمت الشاي إلى شقيقتيها، ووثبت لجلب طبق الكعك المحلى الذي صنعته نورا بنفسها. ثم قالت على حين غرة: «كلنا نعرف أن هذا مستحيل. وأرى أنه من الأفضل أن يستشير أبي طبيباً نفسانياً».

تنهدت نورا وقالت: «أنت تبالغين ڤاليري».

حركت ڤاليري السكر في كوبها وردت من دون أن ترفع نظرها: «لو سمعت ما قاله أبي لكانت ردة فعلك مماثلة».

تنهدت نورا ثانية: «يعتقد أبي أنه تكلم فعلاً مع أمي، وإذا كان هذا الأمر يشعره بالارتياح، فلا ينبغي أن نستخف بكلامه».

ـ وما الذي قالته له أمي؟

سألت ستيفي وهي تستغرب التأثر البادي على شقيقتيها.

رفعت ڤاليري صوتها والاضطراب بادٍ عليها بوضوح: «هذا أكثر ما يقلقني... فهو يظن بأننا سنتزوج كلنا».

لم تستطع ستيفي أن تخفي تعجبها، فثلاثتهن بلغن سن الزواج، ومن المنطقي أنهن سيعثرن على أزواج في نهاية المطاف.

قالت نورا وهي تبتسم بخجل، وكأنها تجد الأمر مسلياً.

ـ ولكنه يدعي أنه يعرف بمن سنتزوج.

تأوهت ڤاليري وهي تضع رأسها بين يديها: «منذ يومين، وهذه

الابتسامة السخيفة تعلو ثغره، ويتكلم عن بيت يعجّ بالأحفاد ـ الذين من المفترض أن ننجبهم له وفي غضون سنوات معدودة فقط ـ ولو لم يكن الأمر مضحكاً، لانفجرت بالبكاء».

ـ هل ذكر بمن من المفترض أن أتزوج؟

سألت ستيفي وقد تملكها الفضول.

رفعت ڤاليري رأسها لتحدق في ستيفاني، بينما قهقهقت نورا ضاحكة وهي تقول: «وهذا ما يزعج ڤاليري، لأنه لم يخبر أي منا، أو على الأقل ليس بصورة مباشرة فهو يتصرف وكأنه يملك سراً خطيراً، ويحتفظ به لنفسه. من وقت إلى آخر يلقي تلميحات خبيثة... أقسم أن هذا الأمر يدفعني إلى الجنون».

ـ أنا لا أبالي بذلك.

قالت نورا ذلك متظاهرة باللامبالاة.

ثم تابعت تقول: «لقد عادت الابتسامة إلى وجه أبي، وهو متحمس بالنسبة للمستقبل، حتى وإن كان يبالغ نوعاً ما بالنسبة لنا... فأنا حقاً لا أبالي. وكل ما في الأمر، إني سعيدة ببقائه على قيد الحياة».

هزت ڤاليري برأسها إيجاباً وقد بدا لها أنه لم يبقَ لديها حجة للاستمرار في النقاش: «أعتقد أني أستطيع تقبل بضع ملاحظات».

تابعت نورا، وابتسامة لطيفة ترتسم على فمها: «هذه المرة الأولى التي لا يبيت أيّ منّا معه في المستشفى. إذ أكد لنا الدكتور وينستون أنه لا داعي لذلك بعد الآن».

تمتمت ڤاليري: «لا تنخدعي بهذا الرجل، قد يبدو لك طبيباً ريفياً بسيطاً، ولكنه قوي كالصخر».

لا شك في ذلك، إن كانت ڤاليري تنفعل على هذا الشكل...

فقد لاح لها، من نبرة صوتها، أن شقيقتها التقت أخيراً بشخص قوي الإرادة مثلها... وإما أن تكون ڤاليري قد غيرت عاداتها، أو أن لديها نقطة

ضعف تجاه دكتور وينستون.

تدخلت ستيفي في الحديث وقالت بسرعة: «بكلام آخر، زال الخطر عنه الآن، وسيتعافى قريباً..».

ردت نورا بسرور: «نعم، سيعود كل شيء إلى سابق عهده».

عارضتها ڤاليري قائلة: «ليس تماماً، فخلال أسابيع قليلة سيستعيد أبي عافيته تماماً، ولكنه سينغص علينا حياتنا بأحاديثه عن الزواج، والعرسان والأحفاد!».

***

عندما استيقظت ستيفي من النوم، كان ضوء النهار الساطع ينساب عبر نافذة غرفة نومها المفتوحة، وأصوات جلبة النهار تتناهى إلى سمعها من الخارج... زقزقة الطيور الآتية من بعيد، وطنين المدقات النحاسية المعلقة على الشرفة الخلفية، وحفيف الستائر التي يلفها نسيم الربيع... حتى أنها تمكنت من سماع صوت العمال وهم يرشون أشجار التفاح في البساتين.

شعرت ستيفي بالفرح، بعد الأيام الطويلة الشاقة التي استغرقتها رحلة العودة إلى بيتها، وتملكها إحساس بالألفة، تدثرت به وكأنه غطاء دافيء... لقد مرت الأزمة على خير، ونجا والدها من الموت، وبدت الدنيا في عينيها أكثر بهجة، وسعادة، وحلاوة.

انسلت من الفراش بكسل وارتدت بنطالاً وكنزة خفيفة، أخرجتهما من حقيبة ملابسها.

وجدت على طاولة المطبخ ورقة صغيرة ذكرت فيها ڤاليري ونورا أنهما ذهبتا إلى المستشفى، وستتركان أمر وصولها مفاجأة. لذا يمكنها أن تلحق بهما ساعة تشاء، إذ لا شيء يدعو للاستعجال بعد الآن.

التقطت موزة من طبق الفواكه الموجود على رف المطبخ وأكلتها فيما كانت تسخن القهوة، ثم دخلت مكتبة والدها وأخذت الصحيفة، وفي

نيتها أن تحملها إلى المستشفى.

عزمت ستيفي على قراءتها كي تستدرك ما فاتها من الأخبار المحلية. ولكنها عرفت أنها تكذب على نفسها.

فالسبب الوحيد الذي دفعها لحمل الصحيفة المحلية معها هو تشارلز توماسيلي. ألقت نظرة على الصفحة الأولى، لصحيفة «صوت وادي البساتين»، وتركت نظراتها تجول على العناوين الرئيسية لبضع لحظات.

كانت تخشى أن تلتقي تشارلز من جديد، وهي على استعداد لفعل أي شيء لتتجنب هذا اللقاء، إذ أنها لم تنسَ إذلاله لها واستهزاءه بها. وهي لن تغفر له ذلك أبداً.. أبداً! فألم إهانته لها ما زال يعتصر فؤادها ويعذبها، على الرغم من مرور السنوات.

ومع ذلك وجدت صعوبة في كره تشارلز، رغم رغبتها الشديدة بذلك. فهي لم تعد تحبه... لقد شفيت من حبها له بطريقة أكثر فعالية من غيرها... لا، أكدت لنفسها، لم تعد تحبه. ولكنها لا تستطيع أن ترغم نفسها على كرهه أيضاً.

عليها أن تعالج ذلك بأسرع وقت ممكن... ولكن لعله، هو أيضاً، يسعى إلى تجنب رؤيتها.

بعد أن حزمت أمرها، تأبطت الصحيفة والتقطت مفاتيح سيارة نورا التي تركتها على طاولة المطبخ، واتجهت نحو الباب وهي تحمل فنجان القهوة الذي يتصاعد منه البخار.

عندما وصلت ستيفي إلى مستشفى وادي البساتين العام، ساورتها نوبة مفاجئة من الحزن... فآخر مرة دخلت عبر هذه الأبواب كان يوم وفاة والدتها. وكاد قلبها يتوقف من الحزن المفاجيء الذي شعرت به. تمهلت دقيقتين حتى تستعيد رباطة جأشها، ثم تابعت طريقها باتجاه المصعد.

عندما وصلت إلى صالة الانتظار، شاهدت نورا تتحدث إلى إحدى الممرضات، فيما كانت ڤاليري جالسة تطالع مجلة. وكم كانت دهشتها

كبيرة أن تجد شقيقتها الكبرى جالسة لا تفعل شيئاً.

هتفت نورا جذلة لمرأى شقيقتها: «ستيفي! هل نمت جيداً؟».

ـ أنا على ما يرام.

إنها بحاجة إلى أكثر من ليلة راحة واحدة لتستعيد نشاطها.

ـ هل تناولت شيئاً على الفطور؟

ـ نعم، يا أمي، لقد أكلت. هل أستطيع أن أرى أبي الآن، أم أنك تودين أن تطرحي عليّ سؤالاً آخر؟

أحاطت خصر شقيقتها الرقيق بذراعها وهي تشعر بالسعادة. ما أجمل العودة إلى أحضان عائلتها.

قالت فاليري بعد أن انضمت إليهما: «لقد وصلت... سألني أبي منذ قليل إذا ما وصلتني أخبارك مؤخراً، فأجبته أنني تلقيت أخباراً عنك هذا الصباح».

ردت نورا بفرح: «سينقلونه غداً من غرفة العناية الفائقة. وعندها سنتمكن من رؤيته جميعنا. ولكنهم الآن، لا يسمحون إلا لواحدة منا فقط بالدخول إلى غرفته».

تدخلت ممرضة وقورة وممتلئة الجسم قائلة: «نورا، أتودين أن أصطحب شقيقتك لرؤية والدك؟».

ردت ستيفي بشوق قبل أن تتمكن نورا من الإجابة.

ـ أرجوك.

قادتها الممرضة عبر ردهة وهي تشعر بحماسة كبيرة لرؤية والدها، حتى أنها لم تلاحظ الأجهزة الطبية الموجودة خلف الغرف الزجاجية. توقفت الممرضة عند إحدى الغرف وأشارت لستيفاني بالدخول.

كان جالساً على فراشه... وعند رؤيتها ابتسم ومد ذراعيه إليها وهو يقول بوهن: «ستيفي، تعالي إلى هنا، يا أميرة».

لاحظت ستيفي وهي تدنو لمعانقته أجهزة المراقبة الموصولة به،

وحاذرت ألا تأخذ في طريقها الأسلاك والأنابيب. دهشت لعناقه الضعيف وهي التي تعودت في السابق أن يعانقها بشدة حتى تكاد عظامها تتكسر بين ذراعيه... لقد ادّعت شقيقتاها أن الشعلة قد عادت إلى عينيه، وصحته تحسنت، ولكن ستيفي خالفتهما الرأي.

صدمها شحوب وجهه، ومظهره الهزيل. ولم تشأ أن تتخيل ما كان عليه مظهره لأسبوع خلا.

بادرها والدها بصوت منفعل: «إنني مسرور لرؤيتك، لقد افتقدتك كثيراً يا أميرة».

ـ وأنا افتقدتك أيضاً.

ردت عليه ستيفي وهي تمسح دمعة فرت من زاوية عينها.

ـ هل عدت إلى البيت، بصورة نهائية؟

احتارت ستيفي في أمرها، فالبيت يعني لها الكثير، ولكنها تحب العيش في إيطاليا. وتذكرت أنها عندما نظرت هذا الصباح إلى البساتين، شعرت بمدى شوقها إلى الحياة في وادي البساتين.

يوم تركت موطنها كانت مجروحة وطرية العود... وها هي اليوم تعود قوية وواثقة من نفسها. لقد ساعدتها الإقامة في إيطاليا على شفاء جراحها، ولكن لم يعد من سبب لبقائها بعيداً، إذ أصبحت مهيأة للعودة إلى موطنها وبيتها.

حاولت أن تتخذ قراراً حول خطواتها التالية عندما وصلها خبر إصابة والدها بنوبة قلبية. فعلى الرغم من أنها أنهت دروسها، إلا أن البقاء في إيطاليا كان يستهويها بقوة. فباستطاعتها السفر لفترة ما، ومتابعة دراساتها، أو ربما العمل في حقل التدريس، والانتقال للإقامة في بوسطن أو نيويورك، أو حتى العودة إلى وادي البساتين... فهي لم تكن تعرف ما تريد.

ـ سأبقى في البيت طالما أنت بحاجة لي.

- ستبقين! أوه... نعم ستبقين.

أكد لها والدها بثقة راسخة لا تتزعزع.

- ما الذي يجعلك متأكداً إلى هذه الدرجة؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة، وانخفض صوته حتى أصبح همساً: «لقد أخبرتني أمك».

- أمي؟

أخذت ستيفي تحس بمخاوف ڤاليري.

- أجل. أظنك ستتصرفين مثل أختك، وتقترحين أن أعرض نفسي على طبيب نفسي... لقد تكلمت فعلاً مع أمك، وهي ترسل لك حبها.

انعقد لسان ستيفي وعجزت عن الرد... أيفترض بها أن تطلب منه أن ينقل رسالة لها؟ ولكنها عدلت وقالت: «ماذا أخبرتك... أمي؟».

- الكثير، ولكنها أكدت لي بصورة رئيسية، أن السنوات المتبقية من عمري ستكون مليئة بالسعادة.

تمهل قليلاً وقهقه برقة: «لطالما عرفت أن لدي نقطة ضعف تجاه الأطفال، وخلال السنوات القليلة القادمة سيرزقنا الله العديد منهم من دمنا ولحمنا».

- أطفال؟

- دزينة كاملة... أتصدقين ذلك؟ بناتي الصغيرات سيجعلنني جدّاً لاثني عشر حفيداً.

تابع والدها كلامه، وشعرت بالاحمرار يعلو وجنتيها: «أعلم أن كلامي قد لا يبدو منطقياً، ولكن...».

- فكر كما يحلو لك طالما أن ذلك يجعلك سعيداً يا أبي.

- إنها ليست مجرد أفكار يا أميرة. إنها حقيقة مؤكدة. ولكن لا تشغلي بالك الآن... دعيني أنظر إليك جيداً. يا إلهي، أرى أنك ازددت جمالاً.

تهلل وجه ستيفي بالسعادة. كانت تعرف جيداً أنها ليست فائقة

الجمال، ولكن ملامحها خالية من العيوب فعيناها كستنائيتان وشعرها الأسود أملس طويل، سرحته إلى الخلف لتبرز خديها وخطوط وجهها الواضحة.

كانت ستيفي تسرد لوالدها مغامرات الأسبوع المنصرم عندما عادت الممرضة التي اصطحبتها إلى غرفة أبيها لترافقها في العودة إلى صالة الانتظار.

أرادت ستيفي أن تحتج، إذ لم يكد يمضي على وجودها معه خمس دقائق! ولكنها أكرهت نفسها على الالتزام بالصمت لأنها لن تفعل أي شيء قد يزعج والدها... قبلته على خده الذي جعدته السنوات ووعدته أن تعود إليه قريباً.

كانت ڤاليري في انتظارها، ولكن نورا لم تكن على مرأى النظر.

رفعت ڤاليري نظرها عن المجلة التي تطالعها وسألتها: «حسناً؟ هل أخبرك شيئاً عما قالته له أمي؟».

هزت ستيفي رأسها إيجاباً، وهي تشعر باللهو في سرها: «يبدو متحمساً بالنسبة للأحفاد المنتظرين. وأنا أكره أن أخيب ظنه، أليس هذا رأيك أيضاً؟».

- وماذا سنفعل الآن؟

غمغمت ڤاليري.

- بما أنك الأكبر سناً، من المنطقي أن تبدأي أنت.

قالت ستيفي ذلك وقد سرها أن ترى الحيرة على وجه شقيقتها.

سألتها ڤاليري: «أبدأ بماذا؟».

- بإنجاب الأحفاد لأبي. كتبت في آخر رسالة تلقيتها منك أشياء كثيرة عن راودي كاسيدي، فما رأيك لو تتزوجين مليونيراً كبيراً، حتى وإن كان رئيسك في العمل؟

- راودي؟

رددت ڤاليري وكأنها لم تسمع بهذا الإسم من قبل.

ـ أوه.. راودي، بالطبع، لماذا لم أفكر به؟

وبهذه الكلمات عادت ڤاليري إلى قراءة مجلتها.

هزت ستيفي رأسها تعجباً من ردة فعلها هذه.

توجهت نحو آلة صنع القهوة وصبت لنفسها فنجاناً، ثم عادت لتجلس إلى جانب شقيقتها. أخذت الصحيفة التي حملتها معها وفتحتها على الصفحة الأولى، وبدأت تقرأ المقالات الواحدة تلو الأخرى. وكم شعرت بالارتياح بعدما قرأت بعض الأسماء المألوفة لديها، فقد بدا لها جلياً أنه لم تطرأ تغيرات كثيرة خلال غيابها.

فتحت الصفحة الثانية من الصحيفة، فلفتت نظرها على الفور صورة تشارلز توماسيللي الصغيرة بالأبيض والأسود. وشعرت للحظة مجنونة أن قلبها يكاد يتوقف عن الخفقان.

بدا على حاله. جذاباً ووسيماً إلى حد يعجز اللسان عن وصفه... ولعل أكثر ما أزعجها هو وقع رؤية صورته عليها، وذلك الشعر الأسود القاتم وتلك العينين السوداوين البراقتين، إذ لم يكن من المفترض أن يحدث ذلك، لأنها تحررت من حبها له. كان عليها أن تحدق في الصورة ولا تشعر بشيء، ولكن عوضاً عن ذلك اجتاحتها مشاعر مضطربة كادت تقطع أنفاسها.

حاولت أن تحول انتباهها عن الصورة، وبدأت تقرأ مقالة تحمل توقيع تشارلز. كانت المقالة عبارة عن استقصاء قام به، حول الظروف غير الصحية وغير الآمنة التي يعيش في ظلها الكثير من العمال المهاجرين العاملين في بساتين التفاح في المنطقة.

توقفت ستيفي عن المطالعة بعد أن قرأت فقرتين من المقالة، إذ جاء فيها اسم والدها واسم بساتينهم. من الواضح أن تشارلز لم يستقصِ الحقائق جيداً! كانت ستيفي تعرف كم بذل والدها من جهد للتخفيف من

وطأة العمل عن العمال المهاجرين، حتى أن أمها افتتحت مستوصفاً لهم. وأمن لهم أباها السكن اللائق والطعام الكافي ودفع لهم الأجور المناسبة.

حاولت ستيفي أن تتابع القراءة، ولكن اجتاحتها موجة من الغضب العارم. وشعرت بتشنج مؤلم في معدتها وهي تنهض على قدميها.

سألت بحدة: «ماذا كان يفعل أبي عندما أصيب بالنوبة القلبية يا ڤاليري؟».

قالت نورا: «كان يجلس على الشرفة. ما الذي جعلك تسألين؟».

ـ كان يقرأ الصحيفة، أليس كذلك؟

ـ لا يمكنني الجزم، ولكني لا أعتقد ذلك.

ـ لا بد أنه كان يفعل ذلك.

قالت هذا بنبرة حادة، واتجهت نحو المصعد. كبست على الزر، وهي ترتعد من الإحساس بالخيانة الذي اعتراها. فكل الأدلة تشير إلى نقطة واحدة... لقد وجدت الصحيفة مفتوحة في غرفته. ويبدو أن والدها اشترى «صوت وادي البساتين» وقرأ المقالة ثم خرج إلى الشرفة مصدوماً ومرتاعاً.

ـ ستيفي، ما الأمر؟

ـ هل قرأت هذا! هل رأيت ماذا كتب تشارلز توماسيللي عن والدنا؟

سألتها وهي ترمي الصحيفة أمام وجه شقيقتها.

ـ كلا، لم أفعل. ولكن..

فتحت الصفحة الأخيرة وردت: «انظري إلى التاريخ».

ـ ما المغزى؟

سألتها ڤاليري والحيرة تحيط بها.

ـ أليس هذا هو اليوم نفسه الذي أصيب به والدي بالنوبة؟

ـ نعم، ولكن..

ـ لو كنت مكانه، لثارت ثائرتك أيضاً، فبعد أن أمضيت سنوات

عمرك تعملين على تحسين الظروف المعيشية للعمال المهاجرين، يأتي شخص يسخر من جهودك أمام الناس جميعاً!

أمسكت ڤاليري ذراع ستيفي برفق وقالت: «ستيفي، أنا لا أستطيع تصديق هذا. تشارلز هو صديق أبي. لقد اتصل عدة مرات للاطمئنان عليه... حتى أنه كان موجوداً هنا ليلة إجراء العملية».

ـ كان على الأرجح يعاني من شعور كبير بالذنب.

يبدو جلياً أن تشارلز أدرك نتيجة فعلته. فقد أصيب أباها بالنوبة القلبية في اليوم نفسه الذي نشرت فيه المقالة، ولهذا جاء لزيارته... إنها متأكدة من ذلك.

ولكنه لن ينجو بفعلته أو يحاول إصلاح غلطته ببضع كلمات يواسيهم بها. فالأمر يتطلب أكثر من ذلك بكثير.

عزمت ستيفي على الذهاب إلى مكتب جوان ليند، بعد مواجهة تشارلز. قد تكون جوان متقدمة في السن، ولكنها محامية بارعة، وستيفي تنوي مقاضاة توماسيللي على ما فعله.

دخلت المصعد وهي متصلبة.

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

سألتها ڤاليري فيما كان باب المصعد ينغلق.

ـ أريد أن أعبّر لتوماسيللي عن رأيي فيه بصراحة.

تناهت إلى مسمعها كلمات أختها بينما كان باب المصعد ينغلق: «هل أنت متأكدة من حقيقة رأيك فيه؟».

عندما وصلت ستيفي إلى شارع ماين ووجدت موقفاً لسيارتها، كان الغضب قد بلغ منها مبلغاً فشعرت بالإعياء والمرض.

تشارلز لا يحبها، وأراد أن ينتقم من أبيها. ولكنها لن تسمح له بذلك.

دخلت مكاتب الصحيفة ووجدت نفسها في بهو الاستقبال الذي

يتوسطه سياج من الخشب اللماع المصقول، يفصل ما بين موقع العمل بأجهزة الكمبيوتر والآلات الطابعة والهواتف التي لا تتوقف عن الرنين، وصالة الزوار. وشاهدت خلف السياج صفين من المكاتب يشغلها المحررون والموظفون، وبينهما ممر عريض يقود مباشرة إلى مكتب رئيس التحرير.

رأت تشارلز على الفور. كان يتكلم على الهاتف إلا أن نظراته تشابكت مع نظراتها. كم تمنت في الماضي أن ينظر إليها بإعجاب ودهشة، وإحساس بالسعادة. ولكن مضى على ذلك وقت طويل.

لم تتخاذل... ودفعت بوابة السياج وسارت عبر الممر المركزي إلى أن توقفت قبالة طاولته، بينما كان يتناهى إلى سمعها من الخلف صوت تأرجح البوابة جيئة وذهاباً، فأدرك تشارلز على الفور أنها لم تأتِ في زيارة اجتماعية.

ـ أتصل بك لاحقاً يا برنت.

وضع السماعة في مكانها بحركة سريعة وقال: «أهلاً وسهلاً، أليست هذه ستيفاني بلومفيلد؟ لمن أدين بشرف هذه الزيارة؟».

زاد عدم اكتراثه من غضبها، وصفقت الصحيفة على المكتب أمامه: «هل ظننت فعلاً أنك ستنجو بفعلتك هذه؟».

حدق تشارلز بنظرات ثاقبة في عينيها: «أنا لا أعرف عما تتكلمين».

ـ لقد نشرت هذه المقالة، أليس كذلك؟

ـ عن أي مقالة تتكلمين؟ أنا أنشر الكثير من المقالات.

لم يخدعها موقفه: «المقالة التي تحدثت فيها عن الظروف المعيشية لعمال البساتين المهاجرين. في الفقرة الأولى لم تتعرض لأحد مباشرة، ولكنك في وقت لاحق أتيت على ذكر أبي!».

ـ ستيفاني..

صرخت به، وقد أخذتها الحمية أكثر: «لم أنهِ كلامي بعد! لم تخل

أن إحدانا ستلاحظ ذلك، أليس كذلك؟».

ـ تلاحظ ماذا؟

لف ذراعيه حول صدره وقد بدأ يسأم من هذا الخطاب التنديدي.

ردت عليه بحدة: «نشرت المقالة في اليوم الذي أصيب فيه والدي بالنوبة القلبية..».

ـ ستيفاني..

ـ لا تنادني بهذا الإسم، الجميع ينادونني ستيفي. أنا.. لا أعرف كيف ستعيش مع عذاب ضميرك.

انهمرت الدموع على وجهها، فمسحتها وهي منزعجة لإظهارها ضعفها، خاصة أمام تشارلز.

ـ إذا كنت تريدين الحقيقة، فأنا لا أجد صعوبة في ذلك.

غمغمت باستياء: «لا أظن أن أمثالك يفعلون، على أي حال ستسمع قريباً من جوان ليند».

ـ تقاعدت جوان ليند منذ سنة.

ـ سأوكل إذاً محامياً غيرها.

استدارت على عقبيها وسارت تعبر المكتب وتدفع بشدة بوابة السياج.

دهشت، لأن مواجهة تشارلز لم تخفف من ألمها.

خرجت من الموقف مسرعة ولم تشعر بالرضى أبداً عندما نظرت في المرآة الخلفية ورأت أن تشارلز لحق بها إلى الخارج.

***

٢ ـ المواجهة المريرة

سارعت ستيفي بالذهاب إلى بيتها والألم يعتصر قلبها. ولم تجرؤ على العودة إلى المستشفى وهي في تلك الحالة النفسية... فالوقت ليس مناسباً لتبادل الأحاديث الودية مع شقيقتيها أو لمقابلة الطبيب المشرف على علاج والدها. فهي تحتاج أولاً للتخلص من هذا الإحساس بالخيبة والخيانة الذي يثقل كاهلها.

جرحها غدر تشارلز في الصميم... فعلى الرغم من خلافاتهما، لم تكن لتصدق أبداً أنه يقدم متعمداً على إيذائها أو إيذاء أي من أفراد أسرتها. ولكنها أخطأت التقدير، لأن تشارلز أظهر حقده وعدم قدرته على الغفران، وهذا أشد إيلاماً من الأشياء التي قالها لها خلال لقائهما الآخر، في ذلك اليوم الرهيب عندما سخر منها.

ولعل أكثر ما صدمها هي قدرة تشارلز على إثارة مشاعرها على هذه النحو، فسيطرته على قلبها لم تتلاشَ مع مرور السنوات. وكأن الوقت الذي أمضته بعيداً عن موطنها، الوقت الذي أعطته لنفسها لتبدأ مجدداً، ذهب سدىً وها هي الآن ضعيفة تجاهه مثلما كانت قبلاً.

منذ لقائهما الأول، سحرها تشارلز وافتتنت به. وأملت ستيفي أن يبادلها العاطفة. كانت حينها تدرس في جامعة بورتلاند، وتقطع يومياً خمسة وسبعين كيلومتراً إلى المدينة. لم يكن قد مضى على وفاة أمها سوى بضعة أشهر، وفضلت ستيفي ألا تنتقل للإقامة في بيت الطالبات

كما كانت قد خططت سابقاً.

ونظراً لحزنها، تاقت نفسها إلى البحث عن العزاء بين الناس الذين تعرفهم وفي الأماكن المألوفة لديها. في الوقت نفسه، كان القلق على والدها الذي بدا وكأنه يهيم على وجهه من شدة الحزن، يقض مضجعها.

في تلك الحقبة كانت ڤاليري تقيم في ولاية تكساس، ورغم ترددها إلى البيت باستمرار خلال مرض أمها، إلا أن برنامج عملها لم يسمح لها بزيارة البيت كثيراً بعد وفاة هذه الأخيرة.

أما نورا فكانت تتابع برنامجاً جامعياً للتمريض، وكانت ستيفي تقلّها بالسيارة معها إلى بورتلاند. ولكن ستيفي لم تكن تمانع أن تقود سيارتها هذه المسافة إلى بورتلاند مرتين في اليوم، إذا اضطرها الأمر، لمجرد أنها سترى تشارلز أكثر من مرة.

شعرت بالخزي وهي تسترجع في ذاكرتها حججها الواهية. فالحب أعماها وجعلها تقوم بتصرفات حمقاء.

تصاعدت الدماء إلى خديها وهي تعود بالذاكرة إلى تلك الحقبة يوم كانت تلاحقه من مكان لآخر مثل جرو ضائع وتدقق في كل كلمة يكتبها. لقد أحبته حتى العبادة، واستعرت نار الحب في داخلها حتى أصبح من المستحيل احتواؤها والسيطرة عليها.

آلمها أن تستعيد في ذهنها تلك الأوقات لذا طردت هذه الذكريات من أفكارها، فالأفضل ألا تعيد إحياء المذلة التي عانتها بسببه.

يقع بيتها على بعد خمسة عشر كيلومتراً من بلدة وادي الساتين. ولما وصلت كانت قد استعادت رباطة جأشها، إلا أنها شعرت بحاجة للقيام بتمرين بدني يزيل عنها الغيظ.

تقع الاسطبلات خلف البيت. لم تحب ڤاليري ونورا يوماً ركوب الخيل.. وحدها ستيفي كانت تعشق ذلك. وفي سن المراهقة وبينما كانت تجاهد لاكتشاف ذاتها، أدمنت على ركوب الخيل الذي منحها

إحساساً بالحرية والقوة. ولعل أسعد أيام حياتها هي تلك التي أمضتها في ممارسة هذه الهواية برفقة والدها.

عرفت من الرسائل التي كانت نورا تبعثها لها أنه توقف عن ركوب الخيل في الآونة الأخيرة وترك مسألة الاهتمام بالخيول للعمال والمروضين.

كان الاصطبل مقسماً إلى ست حظائر، أربع منها فارغة، وغرفة مخصصة للمعدات في الخلف. عندما دخلت ستيفي الحظيرة، رفع كلا الحصانين «برنسيس» و «فيوري» رأسيهما. برنسيس المهر اللطيف الذي اشتراه والدها لها منذ عدة سنوات، وفيوري حصان والدها المخصي، الكبير الحجم والأسود اللون والمعروف بمزاجيته السيئة... ما أن دنت منه حتى أخذ يضرب الأرض بحوافره بشدة.

ـ كيف حالك، أيها الكبير؟

سألته وهي تفرك خطمه الناعم.

ثم تكلمت إلى المهر الموجود في الحظيرة المقابلة: «أنا لا أتجاهلك يا برنسيس، كل ما في الأمر أنني أريد القيام بتمارين شاقة اليوم».

بعدما أعطت فيوري الوقت الكافي ليعود ويأنس إليها، أحضرت ستيفي من غرفة المعدات السرج واللجام، الذي وضعته على الحصان وفتحت باب الحظيرة وقادته إلى الخارج. وبدا لها أن الحصان المخصي يتوق إلى الجري بقدر ما تتوق هي إلى ركوب الخيل. فتحرك بنفاد صبر وهي تشد الحزام حول وسطه وتسوي المداس.

وإذ وضعت قدمها على المداس وهمت بامتطائه، شاهدت سيارة حمراء اللون مندفعة بسرعة على الطريق المؤدي إلى المنزل، فعرفت على الفور أنها سيارة تشارلز.

لم يكن لدى ستيفي الرغبة بالتحدث إلى رجل تعتبره خائناً. كما وأنها لا ترغب أبداً برؤيته ثانية. لقد عقدت العزم على أن تستشير شقيقتيها بشأن

توكيل محامي، وسيدفع تشارلز ثمن ما فعل بأبيها، فحتى وإن كان يحمل لها الضغينة، فهذا لا يسمح له بأن ينتقم من أسرتها.

أمسكت بقرن السرج، وامتطت الحصان. وفيما كانت ستيفي تثبت نفسها على السرج شرد فيوري مهرولاً.

- لا عليك، يا فتى.

حاولت أن تهدىء فيوري بصوت هادىء خافت يخالف رغبتها بالفرار وترك تشارلز خلفها.

تجاهلت صوت بوق سيارته، وشعرت ببعض المتعة لتصرفها الصبياني هذا. وأدارت له ظهرها، وانطلقت بالحصان، شامخة الرأس.

بعد أن قطعت مسافة قصيرة لاحظت، أن تشارلز يلحق بها. ولم يحتج فيوري إلى حافز لينتقل من السير المنتظم إلى العدو السريع. ورغم أنها فارسة متمرسة، لم تكن ستيفي مستعدة لهذه الانطلاقة السريعة المفاجئة. جرى فيوري بسرعة وكأن النار اشتعلت في أعقابه، فأمسكت ستيفي بزمامه وعدلت جلستها قدر ما استطاعت، وهي تتأرجح بصورة مزعجة. في إيطاليا مارست ركوب الخيل ولكن ليس بالقدر الذي كانت ترغب به، وغالباً ما كانت تستخدم سرجاً من الطراز الإنجليزي، فضلاً عن أنها لا تتمتع بالمقدرة على السيطرة على حصان بحجم فيوري وقوته ونشاطه، خاصة إذا لم يروض في الآونة الأخيرة. حمدت ربها لأنها تعرف طبيعة المنطقة جيداً، إذ اندفع فيوري في البداية، يجري إلى جانب الطريق الترابية التي تحدها أشجار التفاح، مخلفاً وراءه عاصفة من الغبار، فاستحال على ستيفي أن ترى ما إذا كان تشارلز لا يزال يلاحقها. في الواقع، صلّت في قلبها أن يتوقف عن ملاحقتها.

لم تعرف ستيفي أن تشارلز لا يزال جاداً في أثرها إلا عندما انعطف فيوري إلى اليسار فشاهدته خلفها. حاولت أن تشد الزمام لتبطىء من سرعة فيوري ويصبح خبّه مريحاً أكثر، ولكن الحصان كان ينصرف على

هواه، وإذ حاولت أن تتحدث إليه تطاير شعرها حول وجهها، وصفعت أطرافه خديها، وحجب عنها الرؤية، فلم تستطع أن تنفوه بكلمة واحدة.

كادت تفقد تحكمها الهش على الحصان، باتت تخشى على سلامة الجواد، وسلامتها الشخصية، بسبب الأرض الوعرة.

كانت ستيفي تذكر المنطقة جيداً لتدرك أنها متجهة إلى منحدر يقع عند نهاية أملاك أسرتها.. وهي بقعة كانت تلجأ إليها عندما ترغب بالانفراد بنفسها.

فأعجبها خيار فيوري، رغم انزعاجها من طريقته في الوصول إلى تلك البقعة.

عزاؤها الوحيد هو أنه يستحيل على تشارلز أن يتابع ملاحقتها، لأن سيارته لن تنجح أبداً باجتياز هذه الأرض الصخرية. وعندها سيضطر للعودة أدراجه، أو ينتظر... وإذا ارتأى أن ينتظر إلى جانب الطريق الترابي، فخياره لن يكون صائباً لأنها، بكل بساطة، ستسلك طريقاً مختلفة عند العودة.

حالما وصلت إلى حافة المنحدر، تباطأ فيوري فشدت الرسن عليه وترجلت عن السرج، وهي تحاول أن تتحكم بركبتيها المرتجفتين. مسحت العرق عن رقبة الحصان ثم اقتلعت من الأرض عشباً ملىء قبضتها وفركته به، ثم قادته إلى الجدول. كانت تمسك لجامه وهو يعب الماء الصافي والبارد، عندما لاحظت زوبعة من الغبار، فظنت للوهلة الأولى أنها زوبعة مفاجئة من الرياح، ولكن قلبها هبط بين ضلوعها عندما رأت السيارة الحمراء.

إن طبيعة الأرض صخرية ووعرة، ولا شك أن تشارلز فقد عقله ليجازف بتحطيم سيارته ليلاحقها.

انتصبت واستدارت لتواجهه، فإذا بتشارلز يقفز خارج السيارة

والغضب الشديد بادٍ على وجهه: «ماذا تظنين نفسك فاعلة، وأي لعنة جهنمية تدفعك؟».

سألها آمراً... وكأنه يملك الحق بأن يكلمها بهذه النبرة.

لم تعره ستيفي انتباهاً وعاودت تدليك الحصان.

- كان من المحتمل أن تقتلي نفسك، يا معتوهة... أو أن تقتلي هذا الحصان المسكين.

خطر في ذهنها أن ترد عليه وتقول له إنها ليست معتوهة، ولكنها أبت أن تزج نفسها في جدال لا جدوى منه. كانت تشعر أيضاً بالذنب لامتطائها حصاناً لا تستطيع التحكم به، وهو لا يزال ملك والدها. ولكن تشارلز خائن... وقد يكون أسوأ من ذلك.

وفي المرة القادمة، لن تتعامل معه إلا عن طريق المحامي.

بدا للحظة وكأنه عازم على الإمساك بكتفيها، وهزها ليعيد إليها بعض الصواب.. رفع يديه في الهواء، ثم أغمض عينيه لبرهة قصيرة واستدار مبتعداً عنها.

- أنت لم تتغيري البتة، أليس كذلك؟

صرخ بها وهو يمرر أصابعه بعصبية في خصلات شعره، فيما كان يعود أدراجه إلى سيارته.

بقيت ستيفي على صمتها، رغم أنها عضت على لسانها في محاولة منها لكبح رغبتها بالرد عليه. لقد أذى عائلتها متعمداً، ولم يعد هنالك ما يقال.

فتح باب سيارته بحركة سريعة.

طرفت عينا ستيفي لانسحابه غير المتوقع. فهي لم تكن تعي ما ينوي القيام به، ولكنها تفاجأت بتسليمه السريع بالأمر وانسحابه.

حاولت تجاهله حتى لا يخالها تهتم لتصرفاته بطريقة أو بأخرى. لفت لجام فيوري حول غصن شجرة، وقد عزمت على تسلق مرتفع صخري.

وأخذت تجول بنظرها على المنظر الشامل للوادي الممتد تحتها حيث تظهر البساتين الخضراء وكأنها حبات عقد من الزمرد.

أنبأها وقع خطى تشارلز وراءها أنه لم يغادر.

صرخ بها وهو يرمي في وجهها الصحيفة التي أعطته إياها: «اقرأي المقالة! ولكن هذه المرة أكملي قراءتها حتى النهاية».

شهقت ستيفي ثم زمت شفتيها بشدة، ومالت برأسها لتتجنب النظر إليه.

التقط الصحيفة ثانيةً وقال: «تريدين المعاندة، لا بأس. ولكن إذا لم تقرأي المقالة، فسوف أقوم بقراءتها لك».

وكم تمنت ستيفي لو أن كلماته لا تصل إلى مسامعها، ولكنها تمنعت عن اللجوء إلى أي تصرف مشين، مثل سد أذنيها.

انكمشت في داخلها فيما كان يقرأ مقدمة المقال بصوته الجهوري، وشعرت وهي تسمعها للمرة الثانية، بأن المقالة أكثر معاداة لوالدها مما ظنته سابقاً. وكأن تشارلز أراد بها أن ينتزع روحية إنجازات دافيد بلومفيلد ويحطمها بالافتراءات والاتهامات الكاذبة.

ولما وصل إلى المقطع الذي توقفت ستيفي عنده عن متابعة القراءة، المقطع الذي ذكر فيه اسم والدها، عاد الغضب يعتمل داخلها. وأغمضت عينيها على موجة الألم التي كادت تبتلعها.

تابع قراءة المقال، وهي تنتظر أن يلي ذلك هجوم كاسح. ولكن شيئاً لم يحدث، وفيما كان تشارلز يتابع، أدركت فجأة كم كانت على خطأ. فأحست بالاختناق في حلقها، واستدارت لتواجهه.

تابع القراءة مستشهداً مباشرة بكلام لدافيد بلومفيلد يسرد فيه الإجراءات التي قام بها لمساعدة العمال المهاجرين.

في البداية، كانت ستيفي مقتنعة بأنها أساءت فهم ما سمعته، ولم تكن واثقة تماماً من صدق تشارلز. فربما كان يلفق هذا الكلام فيما هو

يقرأ، فمدت يدها وانتزعت الصحيفة منه.

وعلى الفور، حددت المقطع الذي كان يقرأه. لم يلفق شيئاً! وقرأت، بوضوح تام، الكلام المنقول عن أبيها، تلته فقرتان تناولت الإجراءات الإصلاحية التي طبقتها بساتين بلومفيلد على مر السنين.

شعرت بغصة في حلقها وأخذت رجلاها ترتجفان، وازداد هذا الشعور حدة عندما أنهت قراءة المقالة. إذ اكتشفت أيضاً أنه جاء فيها أن بساتين عائلتها تعتبر مثالاً يجب أن يحتذي به مالكو البساتين في الجوار.

تنفست ستيفي بعمق في محاولة منها لتهدىء من روعها قبل أن ترفع نظرها إلى تشارلز، وتجعل من نفسها، مرة أخرى، أضحوكة أمامه. انكمشت على نفسها وهي تشعر بإحراج شديد وبالاستياء! أوه. يا الله، كم كانت حمقاء!.

عرفت أن لقاءهما مرة ثانية، محتم. وكانت تأمل، عند عودتها، أن ينظر إليها من بعيد كامرأة ناضجة ومحنكة. كانت ترغب أن يرى فيها امرأة مثقفة واسعة الآفاق، وليس تلك الفتاة اليافعة التي تيمها الحب، فغادرت وادي البساتين منذ ثلاث سنوات.

تخيلت لقاءهما الأول، عندما تقدمت منه وعلى وجهها ابتسامة رقيقة ومدت له يدها بتهذيب.

رسمت في ذهنها صورة لقائهما الأول.. ستتقدم منه وعلى وجهه ابتسامة رقيقة وتمد يدها له بتهذيب، ثم تغمغم بلطف شديد كم يسرها أن تراه ثانية، ولكن لسوء الحظ لا تستطيع أن تتذكر اسمه. أهو تشارلز.. أم اسم آخر..؟

ولكنها عوضاً عن ذلك قالت بصوت مرتجف: «يبدو أنني أدين لك باعتذار».

رد عليها بحدة: «طبعاً، أنت تدينين لي باعتذار! حسبتك تغيرت خلال السنوات الثلاث الماضية. ولكنك عوضاً عن ذلك، أصبحت

مصدراً أكبر... للإزعاج».

شعرت أن كلماته تصفعها، فأجفلت لا إرادياً. ولم يكن لديها ما تدافع به عن نفسها... لا عبارات قد تزيل الخجل بسبب ما أقدمت عليه... ولا كلمات تعبر عن اعتذارها لدخولها مكتبه بتلك الطريقة وإثارة مشهد عاصف أمام كل الموظفين.

وافقته الرأي، بصوت ثابت.

ـ يبدو أنني كذلك.

ـ كدت أموت من الخوف عليك، وأنا أراك تنطلقين على صهوة فيوري على هذا النحو. كان يمكن أن تقتلي نفسك.

ومرة أخرى، لم تجد الكلمات المناسبة للرد عليه، فلو كانت في وضع نفسي مختلف، لأدركت أن امتطاء جواد مثل فيوري لن يثير إلا المتاعب.

صرخ بها وقد بلغ الغضب منه مبلغاً: «أنت امرأة مجنونة! ألم يخطر على بالك ما قد أشعر به لو آذيت نفسك؟ ألم تفكري بوالدك؟ اتهمتني بأنني السبب في إصابته بالنوبة القلبية! ماذا تظنين أنه سيحصل له لو قتلت نفسك؟».

ـ أنا.. أنا..

عضت على شفتها لتوقف ارتجافها، وقد استاءت من ضعفها أمامه.

ـ اللعنة!

صرخ بها وهو يمد يديه ويجبرها على النهوض على قدميها ثم يشدها من كتفيها ويأخذها بين ذراعيه.

وقبل أن تعي ما يحصل، وجدت نفسها بين أحضانه.

أزاح إحدى يديه عن كتفها وشد على شعرها الطويل المتشابك. ثم همس: «ألديك فكرة عما ظننته؟ ألديك فكرة عما جال في ذهني؟».

ارتعد قلبها... عليها أن تقاوم للتملص من عناقه... عليها أن

تطلب منه أن يدعها وشأنها، وتخبره أنه لا يحق له أن يحضنها بين ذراعيه. ولكن ستيفي عجزت عن الكلام أو القيام بأي حركة.

لم تحاول أن تردعه حتى عندما هم بمعانقتها. وهي تدرك في قرارة نفسها أنه غاضب، وعازم على معاقبتها بعناق وحشي.

وعلى عادتها مؤخراً، كانت ستيفي على خطأ. لأن عناقه لها كان رقيقاً وناعماً... وجحظت عيناها من الدهشة والتعجب.

وقبل أن تعي ما تفعله، رفعت ذراعيها ولفتهما بخجل حول عنقه، وارتسمت ابتسامة رضى على شفتيها وهي تتوق لأن يضمها إليه بشدة أكثر.

إلا أنه قال لها هامساً بصوت أجش وهو يقبض على رسغيها ويبعد ذراعيها عن عنقه: «لا، يا ستيفي».

ثم تراجع بضع خطوات وكأن ناراً لسعته. ووقفا يحدقان ببعضهما البعض لبضع ثوانٍ قبل أن يستدير على عقبيه ويبتعد مهرعاً.

* * *

أخذت ستيفي قيلولة طوال فترة بعد الظهر ولم تستيقظ حتى العصر. كانت الشمس تميل إلى الغروب، وتغمر الساتين بظلال وردية اللون وجميلة المنظر. نزلت إلى الطابق الأرضي، غير دارية بالوقت، ووجدت نورا تدندن نغماً ناعماً في المطبخ.

ابتسمت نورا بغبطة عندما شاهدت ستيفي، وحيتها: «مرحباً، كنت أتساءل متى ستستيقظين، لا شك أنك مرهقة».

هزت ستيفي رأسها إيجاباً:

ـ لقد تركت لك طبقاً من الطعام في الفرن، أراهن أنك تتضورين جوعاً.

كان آخر ما تناولته من طعام هي الموزة التي أكلتها على الفطور.

غمغمت بكلمات الشكر، وسارت نحو الفرن وأخذت من داخله طبق الطعام. حدقت ستيفي مطولاً إلى صدر الدجاج المشوي والبطاطا المحمرة والفاصوليا الخضراء الطازجة، وتذكرت أن شقيقتها كانت دوماً طاهية ماهرة.

سألتها نورا بارتياح وهي تتابع غسل الصحون:

ـ أين ذهبت هذا الصباح؟ لقد أخبرتني ڤاليري أنك مستاءة من تشارلز توماسيللي؟.

سحبت ستيفي كرسياً وجلست لتناول الطعام: «أردت أن أستفهم منه حول أمر ما».

ـ هل سويت الأمر؟

أخفضت ستيفي بصرها وردت:

ـ لقد توضحت الأمور.

ـ هذا جيد. لقد كان رائعاً بالفعل طوال المحنة التي مررنا بها. وسرّ أبي من الاستحسان الذي لاقته المقالة عن العمال المهاجرين. لقد قرأتها، أليس كذلك؟ لقد أمضيا أسابيع طويلة معاً يجمعان المعلومات والحقائق، إنها المرة الأولى التي يظهر فيها أبي اهتماماً بأي شيء منذ وفاة أمي. وأنا لا أظن أن تشارلز يعرف كم بذل أبي من جهد في إعداد هذه المقالة. وهو، من دون شك، راجع التفاصيل أكثر من مرة.

فقدت ستيفي التي كانت تهم بتناول الطعام شهيتها: «أنا.. لم أدرك ذلك».

ردت نورا موضحة وهي تنحني لتنشف يديها:

ـ كنـت أنوي أن أرسل لك المقالة. ولكن مرض أبي أنساني كل شيء.

ـ أين ڤال؟

ـ إنها تعمل في المكتبة... أنت تعرفين ڤال... فهي تحب أن

تكرس نفسها للعمل. ففي غضون أيام من وصولها إلى هنا، طلبت جهاز فاكس لتتلقى عليه الملفات والسجلات والوثائق من المكتب... مع أني يجب أن أقر أن تفكيرها لم يكن منصباً على العمل مؤخراً.

ـ أوه؟

حاولت ستيفي أن تتذوق طعامها، ووجدت الدجاج لذيذ الطعم، فتناولت لقمة أخرى.

رفعت نورا حاجبيها:

ـ إن كنت لم تلاحظي ذلك، فاعلمي أن نيران الحب بدأت تستعر في قلبي قال والدكتور وينستون.

سألتها ستيفي وهي تلوح بشوكتها في الهواء: «أهذا صحيح؟ وماذا عن رئيس ڤاليري؟ في كل الرسائل التي بعثتها لي، لم تأتِ على ذكر أحد سوى رودي».

ـ أنا لا أعرف شيئاً عن رودي، ولكني أعرف ما رأيته ليلة أجريت العملية لوالدي.

سألتها ستيفي باهتمام: «وماذا رأيتِ؟».

ـ انهارت ڤاليري بعدما سمح لنا بالدخول لرؤية أبي، ولم تدرك أني لاحظت مدى اضطرابها وانزعاجها، ولكني استنتجت أنها بحاجة لبضع دقائق لوحدها... ولم أكن قد رأيت أبي عند ذلك، وعندما قابلته، فهمت قلق ڤاليري. كان مشرفاً على الموت، ولا أعرف إن أخبرك أحدهم عن مدى خطورة حالة أبي، ولكن نجاته بعد عملية القلب المفتوح كانت معجزة.

تنهدت ثم تابعت كلامها: «على أي حال، عندما دخلت لرؤية أبي، تساءلت إذا كان النهار سيطلع عليه. أعرف أن معظم الأطباء الذين شاركوا في العملية كانوا يشكون في إمكانية نجاته. صحيح أنهم لم يذكروا الكثير، ولكنني عملت في غرفة العمليات الجراحية مراراً وبما يكفي

لأعرف مدى خطورة حالة المريض. ومن نظرة واحدة إليه أدركت أنه قد لا يصمد لساعات قليلة أخرى، فقد كان يعاني من مضاعفات كثيرة، مثل الاستسقاء في الرئتين وما يستتبع ذلك».

توسلت إليها ستيفي:

ـ أخبريني عن ڤاليري.

ـ أوه، نعم، ڤاليري. حسناً، خرجت إلى شرفة غرفة الانتظار في القسم الجراحي، بعدما رأيت أبي. كانت تبكي، وكلانا يعرف أنها نادراً ما تبكي... أردت أن أواسيها، ولكني توقفت عندما شاهدت كولبي يقف معها.

كانت ستيفي قد سمعت أشياء طيبة عن دكتور وينستون، ولكن تعاطفه مع أختها أثبت كل ما سمعته عنه... فأخبرت نورا بذلك، التي أومأت برأسها موافقة.

ـ رأيتهما يجلسان معاً وهو يحيطها بذراعيه... لا أعرف كيف أشرح الأمر، ولكنني أحسست أنه مستعد ليفعل كل ما بوسعه ليخفف عنها آلامها، فاستنتجت حينها أن مظهره يدل على أنه اكتشف لتوه أنه واقع في الحب.

ـ وڤاليري؟

ـ أظنها أدركت بدورها أنها تحب كولبي. فأنت تعرفين مدى قوة شخصية ڤاليري، وكيف أنها لا تقبل المساعدة من أحد. وعلى أي حال، لأول مرة أجد أنها تحتاج إلى مساعدة شخص آخر، وكان كولبي الشخص الذي لجأت إليه.

قالت ستيفي ببطء: «ڤاليري والدكتور وينستون».

غالباً ما تساءلت عما سيكون الأمر عندما تقع ڤاليري في الحب، إذ لطالما كانت موضوعية وأكثر تعقّلاً من أن ترتبط بعلاقة خلال دراستها الجامعية. ولطالما ردّدت أنها دخلت الجامعة لتحصيل العلم وليس

للبحث عن زوج.

وتابعت نورا: «وبدأت حالة أبي الصحية تتحسن، وراح يروي تلك الأحاديث عن زواجنا وإنجابنا الأطفال، وأخشى أن ڤاليري أخذت كلامه على محمل الجدّ، وقلقت جداً بالنسبة لهذا الأمر. ولكن لا يجب لومها، فهي تقع في الحب للمرة الأولى في حياتها وتخشى أن يكون كولبي الرجل غير المناسب لها، أو على وجه التحديد أكثر، ألا تكون المرأة المناسبة له».

- الحب هو الحب، وإذا كانت مشاعرهما نحو بعضهما البعض بهذه القوة، فأين المشكلة؟

ارتسمت ابتسامة حزينة على ثغر نورا وترددت قليلاً: «كولبي رجل تقليدي بكل معنى الكلمة، وأظنه يبحث عن امرأة تتمتع بعقلية نساء الخمسينات».

- وهل تعرف ڤاليري ذلك؟

- طبعاً. وكولبي يعي تماماً أي نوع من النساء هي ڤاليري، فمكانها ليس في المطبخ بل في غرف مجالس الإدارة.

ردت ستيفي، وفي اعتقادها أن كولبي وينستون يجب أن يقدر ما أنعم الله على ڤاليري من مواهب: «وأنا أقول أن هذه ميزات إضافية فيها».

وافقتها نورا الرأي قائلة: «تماماً... ولكن إن تزوجت ڤاليري كولبي، فستضطر للتخلي عن عملها. والسبب الأول هو أنه ليس هناك من فرع لشركة «تشيبس» في هذا الجزء من البلاد. ولقد جهدت كثيراً وعملت طويلاً لإطلاق أعمالها».

- وبكلام آخر، على كليهما تقديم التنازلات... ولكنهما لا يستطيعان ذلك!

- تماماً. لم يقل لي أحد قط إن الحب يمكن أن يكون معقداً إلى هذا الحد... وأنا أشعر بالأسى عليهما. فهذا أقصى ما يمكن أن يعانياه من

البؤس.

أنهت ستيفي تناول طعامها وسألت، وهي تحاول أن تخفي عن شقيقتها فضولها حول «أحاديث» والدها مع أمها: «ما رأيك بكل هذا الحديث عن التجربة.. التي مر بها أبي؟».

سحبت نورا كرسياً وجلست قبالة ستيفي وأجابت: «أنا لا أفهم... إنه مقتنع تماماً بروايته، وهذا هو المهم، ألا تعتقدين ذلك؟».

لم تعد ستيفي واثقة من أي شيء. في الماضي كانت واثقة من أنها تعرف ما تريد أن تفعل في حياتها. ولكن بعد انهيار أحلامها كلها انتقلت للعيش في إيطاليا حيث أعادت التفكير في حياتها الخاصة.

خطر لستيفي فجأة، بأنها أمضت ثلاث سنوات من حياتها تنشد العلم وتتنقل من بلد إلى آخر في أوروبا، هدفها الأساسي من وراء ذلك أن تؤثر في تشارلز توماسيللي عند عودتها.

لقد أثرت فيه فعلاً! وجعلت من نفسها أضحوكة أمامه.

أكملت نورا حديثها، قاطعة على ستيفي أفكارها: «طوال فترة بعد الظهر وأبي يتحدث عن أحفاده».

ردت ستيفي بنعومة: «أحفاده! منك بالطبع؟».

لم يكن بوسعها أن تتخيل ڤاليري أماً، وهي لا تعتزم الزواج أبداً. وعندما تسمح حالة أبيها الصحية بعودته إلى البيت، كانت تنوي أن تستأجر لنفسها شقة في مدينة بورتلاند، وتتقدم من أجل الحصول على منحة لدراسة الدكتوراه. فلقد حصلت على شهادة الماجستير من أوروبا بعد أن خضعت لبرنامج مكثف في تعلم اللغة الإيطالية.

فكرت ستيفي في نفسها بحزن، أنه يصعب التصديق بأن شخصاً مثقفاً إلى هذه الدرجة يمكن أن يكون مشوشاً بهذه الصورة المخزية حول دوافعه الداخلية.

قالت نورا وهي بالكاد تلجم ابتسامتها: «يدعي أبي أنني سأنجب له

ستة أحفاد، أتتخيلني أماً لستة أطفال؟».

ـ وهذا يعني أن ڤاليري ستنجب الستة الآخرين؟

ـ لا، ثلاثة، حسب هرطقات أبي، وأنت أيضاً ستنجبين ثلاثة صغار أحباء.

كشرت ستيفي مبتسمة، رغم الاكتئاب الذي تشعر به، إذ لم تتخيل نفسها أبداً متزوجة ولديها قطيع من الأولاد. لقد أحبت رجلاً واحداً في حياتها، وكانت تجربة مؤلمة جداً بحيث صممت ألا ترتكب الغلطة مرة أخرى أبداً.

ـ أعتقد أنه علينا الانتظار.

وقفت ستيفي وحملت صحنها الفارغ إلى المجلى بينما أجابت نورا قائلة: «أعتقد أن هذا ما سنفعله».

على الرغم من أنها نامت مطوّلاً في فترة بعد الظهر، كانت ستيفي تتثاءب بعد مضي ساعتين، فاعتذرت من شقيقتها واتجهت إلى غرفة نومها، فاستحمت وخلدت إلى الفراش، لتستمتع بملمس الملاءات النظيفة والناعمة.

جلست على السرير ورفعت ركبتيها حتى لامستا ذقنها. وأخذت تراجع في ذهنها الأحاديث التي تبادلتها مع نورا. لقد تزوجت معظم صديقاتها خلال السنوات التي أمضتها في الخارج. ووصلتها دعوات لحضور حفلات زفافهن عن طريق نورا، حتى أن عدداً كبيراً منهنّ أصبح أماً لأكثر من ولد.

لم تسمح ستيفي لنفسها، خلال فترة إقامتها في إيطاليا، بالتفكير بأي شيء جدّي غير دراستها، التي شغلت معظم وقتها. لقد تنقلت من مكان إلى آخر ودرست وعملت بجهد. ولكنها، عندما كانت تتلقى دعوة لحضور حفل زفاف أو ولادة، كانت تتساءل للحظة إذا ما كان ينقص شيء في حياتها.

وتخيلت أكثر من مرة وهي بصحبة ماريو، الشاب اللطيف، ابن صاحبة المنزل الذي استأجرته في روما، كيف سيكون وضعها عندما يصبح لديها أسرتها الخاصة.

وهاهي الآن تختبر هذا الشعور ثانيةً، أكثر من ذي قبل. فقد أزعجتها كل هذه الأحاديث عن الزفاف والأولاد وشعرت وكأنها مستبعدة نوعاً ما. فمن المحتمل أن تتزوج ڤاليري حبيبها الدكتور وينستون، وتجد نورا زوجاً رائعاً لها.

ولكن ماذا عنها؟ وأدركت أنها لاتؤمن بنهاية سعيدة من النوع ذاته.

* * *

٣ ـ الذكريات الأليمة

رغم الإرهاق الذي أضناها، لم تستطع ستيفي النوم. وبعدما تقلبت في سريرها ولفت الملاءات حولها، جلست على حافة السرير ورفعت شعرها الطويل عن وجهها.

لو لم تكن أدرى بحالها لظنت بأن القيلولة التي أخذتها بعد الظهر هي السبب الذي يمنعها من النوم.

ولكن صورتها وهي تبدو كالحمقاء أمام تشارلز بقيت تطاردها وتقض مضجعها إلى درجة كادت تدفعها إلى الصراخ.

راحت تستعيد في ذاكرتها المرة الأولى التي سمعت فيها عن تشارلز توماسيللي. فقد قرأت افتتاحية في صحيفة «صوت وادي البساتين» وأعجبت بأسلوبه وظرفه. ومهما كان رأيها به الآن، فهي لن تستطيع أبداً أن تقلل من قيمته ككاتب. فهو يتمتع بموهبة الكتابة بأسلوب يدفع القارىء إلى التأمل. إذ يختار كلماته بعناية، ويكتب جملاً واضحة وموجزة، وفي الوقت ذاته، دقيقة ومعبرة، كما أنه يتطرق إلى مختلف المواضيع، بدءاً بالتحولات الاجتماعية وصولاً إلى الوضع السياسي المحلي.

عندما قرأت له بضع مقالات، ظنت أنه كبير في السن. فملاحظاته الدقيقة وأسلوبه الواضح يدلان على أنه شخص عركته الحياة. ومضت عدة أسابيع قبل أن تلتقي به شخصياً. وحينها اضطربت ولم تستطع أن تنفوه

بكلمة.

حاولت أن تخبره عن مدى إعجابها بافتتاحياته، ولكنها تلعثمت وخرجت منها كلمات غير مفهومة وكأنها طفلة في الثالثة من عمرها.

شعرت بالإحراج الشديد ولكن تشارلز رد عليها بكياسة وشكرها على إطرائها.

وكم كانت دهشتها كبيرة حين أدركت أنه في أواخر العشرينات من عمره، ووسيم للغاية، حتى أن النظر إليه يريح العينين بملامحه الإيطالية السمراء. ومنذ أن وقعت عيناها عليه شعرت بانجذاب قوي نحوه.

كانت حياة ستيفي الاجتماعية صاخبة، على خلاف ڤاليري التي لم تصادق أحداً خلال فترة دراستها في الثانوية والجامعة. فقد كانت ستيفي محبوبة من الجنسين، ولها شعبية كبيرة، حتى أنها انتخبت ملكة حفل التخرج في المدرسة... ولكن رغم صداقاتها العديدة، لم تقع ستيفي في الحب يوماً... واعتقدت، أكثر من مرة، أنها واقعة في الحب، ولكنها كانت من الحكمة بما يكفي لتدرك أن ما تحس به هو هوس فحسب، بفكرة الوقوع في الحب.

لم ترتبط قط بعلاقة جدية، رغم بلوغها الحادي والعشرين من عمرها، إذ لم تعتبر نفسها يوماً جاهزة لعلاقة مماثلة إلى أن قابلت رئيس تحرير «صوت وادي البساتين» المعين حديثاً.

فعرفت على الفور أنها ستقع في حب هذا الرجل، إذ في أعماق قلبها الشاب، كانت مقتنعة تماماً من أن ذلك سيحدث.

بعد لقائهما الأول، قادت ستيفي سيارتها إلى البيت وهي في حالة ذهول. لم تخبر أحداً بمن فيهم شقيقتيها ولم تعرف كيف تعبر عن مشاعرها من دون أن تبدو سخيفة. فالحب من أول نظرة لا يحدث إلا في الأفلام السينمائية والقصص العاطفية.

كانت التساؤلات تضج في رأسها، في ما إذا كان تشارلز يبادلها

الأحاسيس نفسها، وسرعان ما أقنعت نفسها بأنه يفعل.

وعلمت أنه في السابعة والعشرين من عمره، وهو رجل ناضج، بينما هي لا تزال طالبة جامعية طرية العود ولم تعركها الحياة.

أصبحت حياة ستيفي متوقفة على أعداد صحيفة «صوت وادي البساتين»، فتقلب صفحاتها لتجد مقالة تشارلز وتلتهم كل كلمة كتبها. واكتشفت في وقت لاحق أن الآخرين مأخوذين أيضاً بأعماله. لم يكن قد مضى شهران على وجوده في البلدة، وها هو قد أصبح مصدر اعتزاز وفخر لكل أهالي هذه المنطقة.

استقامت ستيفي في جلستها ومدت يدها لتضيء المصباح الموضوع إلى جانب السرير. إذ بدا لها جلياً أن النوم قد جافاها، ولن يساعدها البقاء في غرفتها واسترجاع ذكرياتها مع تشارلز.

كان البيت مظلماً وساكناً وقد خلدت ڤاليري ونورا إلى النوم. نزلت بهدوء على الدرج المضاء بأنوار خفيفة، لأنها لم ترغب بإيقاظ شقيقتيها.

فكرت أن تعد لنفسها فنجان شاي، ولكنها عدلت عن ذلك، وسارت على أطراف أصابعها إلى داخل غرفة والدها، وأضاءت النور الخفيف وأخذت كتاب «أناشيد من الأدب البرتغالي»، الذي قدّمه والدها لأمها منذ سنوات طويلة، وجلست على كرسيه، وقد بدأت تشعر بالارتياح.

كان ملمس جلد المقعد بارداً على جلدها. وشاهدت الحرام الأفغاني الذي حاكته أمها في طفولة بناتها، ملقىً بعناية على السرير. لا شك أن ڤاليري وضعته هناك لأنه لم يكن موجوداً ليلة أمس.

مدت يدها إلى الحرام الوردي اللون ولفته حولها، ثم تحولت إلى قراءة إحدى القصائد المفضلة عند أبيها.

قرأت صفحتين أو ثلاث، قبل أن تعود للتفكير مجدداً بتشارلز، والأيام الأولى لمعرفتها به...

لم يكترث لها، ولم يبادلها إحساسها حتى أنه لم يتذكر اسمها. أما

هي، فمنذ اليوم الأول الذي التقت فيه، أخذت تراودها كل ليلة أحلام جميلة عن المرح والحب والتنزه يداً بيد تحت أشجار التفاح والتخطيط لحياتهما المستقبلية.

كان قلبها ممتلئاً بالحب بحيث وجدت صعوبة في إخفاء الأمر عنه.

وجدت في محاولة جذب انتباه رجل إليها تحدياً جديداً. فحتى ذلك الحين، كان الرجال هم الذين يسعون إليها. ولم تجد أمامها خياراً أفضل من أن تدع تشارلز يعرف أنها مهتمة به، ولن تكون المهمة صعبة على ملكة جمال حفل التخرج السابقة.

كانت الخطوة الأولى تقضي بكتابة رسالة له تعلق فيها على براعته في الكتابة وإعجابها بآرائه. بذلت جهدها في كتابة كل كلمة، ثم انتظرت الرد منه حوالى أسبوعين.

ولكن الرد لم يأتها.

لم ينشر تشارلز رسالتها ولم يرد عليها، فاعتصر الألم قلبها. ولكنها ليست من النوع الذي يتخلى بسهولة عن مراميه، فقامت بزيارة مكاتب الصحيفة وهي تحمل مقترحات لمجموعة واسعة من المواضيع.

عاملها تشارلز بتهذيب شديد، ولكنه أوضح لها أن لديه محررين وصحفيين نشيطين تنحصر مهمتهم في جمع المواضيع والتحقيقات.

كانت خطتها تهدف إلى إثارة إعجاب تشارلز من خلال اهتمامها بالشؤون المحلية فيدعوها إلى العشاء لمتابعة النقاش حول اهتماماتها.

يبدو أنها أمضت وقتاً طويلاً تحوم حول مكاتب الصحيفة جاعلة من نفسها مصدر إزعاج. إلى أن دعاها تشارلز بشكل مفاجىء، لتناول القهوة في أحد الأيام.

كانت ستيفي مهتاجة جداً بحيث بالكاد استطاعت أن تجلس ثانية. وتشجعت أكثر عندما اختار تشارلز طاولة منعزلة في زاوية المقهى.

حتى بعد مضي ثلاث سنوات، لم تنسَ ستيفي بعد مدى سعادتها بهذا اللقاء. جلست على المقعد الخشبي قبالته، وهي متيقنة أنه سيتمكن من رؤية الحب والوله في عينيها.

ولكن اللقاء، كان مخيباً بمرارة. كان تشارلز لطيفاً ولكن حازماً. ولفت انتباهها إلى الوقت الطويل الذي تمضيه في مكاتب الصحيفة، مما قد يؤثر على دروسها. ثم أعاد لها الرسالة، والمذكرات الأخرى التي كتبتها له وقال لها إنه يشعر بالزهو لاهتمامها به، ولكن الصحيفة تشغل كل وقته ولا تترك له الفرصة للارتباط بأي علاقة.

وعندما ألحت ستيفي عليه بأن يوضح أكثر، أخبرها من دون تردد، بأنها أصغر سناً من أن يواعدها ويخرج معها. بالإضافة إلى أنه يشعر بأنها.. بريئة جداً.

صحيح أنها في الواحد والعشرين من العمر، ولكنها امرأة بالغة، وقلما يهمها إن كان يكبرها سنوات، ولا يجب أن يمانع هو أيضاً.

وبصفتها عضو نشيط في نادي الحوار في مدرستها، تعلمت ستيفي كيفية إدارة النقاش، وعليها الآن أن تستنفذ مهاراتها كلها.

ولكن ذلك لم يأتِ بنتيجة.

وفي النهاية أخبرها بأنها فتاة لطيفة، ولكنه غير مهتم بها. فهو رجل مشغول وليس لديه الوقت أو الصبر لرعاية الأطفال.. رعاية الأطفال! خلت كلماته تلك من التهذيب، ولكن بدا واضحاً أنه لا ينوي أن يواعدها أو يخرج معها، على الإطلاق.

جلب النادل القهوة، فارتشف منها تشارلز جرعة واحدة قبل أن يرمي النقود على الطاولة ويغادر.

بقيت ستيفي في مكانها، والألم يقطع أنفاسها، والخيبة الموجعة تعتصر قلبها. لم تستطع أن تتذكر كم طال بقاؤها في المقهى.

من الواضح أنها بقيت وقتاً طويلاً جداً لأنها في نهاية المطاف أقنعت

نفسها بأن تشارلز توماسيللي كان يكذب، وهذا جعلها تتنفس الصعداء.

* * *

ـ ستيف.

وشعرت بيد دافئة على كتفها.

ـ لمَ أنت نائمة هنا؟

رفعت ستيفي رأسها وأجفلت. فقد كانت ڤاليري تقف إلى جانبها وهي ترتدي رداءً طويلاً.

ـ كم الساعة؟

أجابتها ڤاليري وهي تبتسم: «لقد طلع الصباح، كم مضى عليك وأنت هنا؟».

انكمشت ستيفي على نفسها وهي تحرك ساقيها، لأنها شعرت بانقباض عضلاتها. لم تكن متأكدة كم مضى عليها من الوقت وهي نائمة ولكن عضلات ساقيها كانت منقبضة، والكتاب ملقي على حضنها.

ـ سأعد القهوة والخبز المحمص قبل أن أتوجه إلى المستشفى، هل تريدين بعضاً منه؟

ـ نعم، من فضلك.

كانت منشغلة تماماً بالتفكير بما حدث بينها وبين تشارلز في الأيام الأولى لتعارفهما فلم تستطع أن تتذكر متى غرقت في النوم. وكم أدهشها أنها استرسلت أخيراً للنوم، وتساءلت فيما إذا كانت أفكارها قد لحقت بها في أحلامها.

قالت ڤاليري عندما انضمت إليها ستيفي في المطبخ: «لقد تحسنت صحة أبي بشكل ملحوظ مقارنة عما كان عليه الأسبوع الماضي. إنها معجزة».

ـ كم كان مريعاً أن أحتجز في إيطاليا على ذاك النحو!

ـ هل تعرفين..

تمهلت ڤاليري في إكمال جملتها وهي تمسك بكوب كبير من البورسلين: «يسرني أنك لم تتمكني من العودة إلى البيت على الفور. فربما هذا ما حث أبي على البقاء على قيد الحياة. فقد كان عازماً على رؤيتك قبل أن يموت».

لم تستوعب ستيفي كلام شقيقتها على الفور: «أتقصدين القول إن أبي كان يملك وسائل للتحكم في توقيت.. رحيله؟».

ـ نوعاً ما، فالموت هو ما كان يريده. لكن هذه التجربة علمتني أن إرادة الإنسان هي شيء مدهش.

بدأت ستيفي بتحميص الخبز، وأخرجت الزبدة ومربى الفريز الذي صنعته نورا بنفسها من الثلاجة: «لا أظنني فهمت ما تعنين بإرادة الإنسان».

ردت ڤاليري عليها بعد لحظة وقد بدا على محياها التأمل والاستغراق في التفكير: «أنا لا أعرف إن كان باستطاعتي أن أشرح ذلك. كل ما أعرفه أن أبي كان على شفير الموت لعدة أيام. وعندما وصلت أوضح لي كولبي بأن أبي يجب أن يخضع لعملية القلب المفتوح... أراد إجراء العملية فوراً ولكنه لم يستطع بسبب المضاعفات المتعددة التي كان أبي يعاني منها، إذ لم تعد لديه إرادة المقاومة من أجل الحياة... كان تعساً بعد فقدانه أمي، ولا أعتقد أن أحداً قدر تماماً مدى معاناته من الوحدة التي كان يشعر بها».

ـ ما كان يجدر بي أن أتركه وأبتعد عنه.

رغم محاولات ڤاليري للتخفيف عنها، لامت ستيفي نفسها جزئياً لمرض والدها. فلما أتى لزيارتها في إيطاليا، شعرت بأن ثمة خطب ما. فزيارته لأوروبا لم تكن حباً بالسفر، ولكن لأن ڤاليري ونورا اعتقدتا أن مثل هذه الرحلة ستنعش روحه وترفع من معنوياته.

استمتعت ستيفي برفقة والدها وكانت متحمسة لتريه البلد الذي بدأت

تحبه وتعرفه إلى أصدقائها الجدد. وتجنبت بحذر الكلام عن وادي البساتين أو أمها. توسل إليها والدها لتعود إلى البيت، ولكنها كانت حينها قد التحقت بالجامعة ودفعت مقدماً إيجار الشقة، وتعتزم القيام برحلات أخرى داخل إيطاليا. لكنها مجرد أعذار واهية، تخفي بها خوفها من العودة إلى الوطن.

ستيفي بلومفيلد خائفة! ستيفي المتهورة، والمقدامة خائفة من رجل... لا بل تخشى التكلم مع تشارلز مجدداً أو النظر في عينيه والتظاهر بأن الجرح لم يعد يؤلمها، وبأنها لا تحبه.

كانت عاجزة عن نفض غبار الماضي، خاصة عندما يصبح الأمر أبسط بكثير بمجرد بقائها في أوروبا. لقد أحبت مواد التاريخ التي أخذتها، واستمتعت بالتنقل في أنحاء إيطاليا. وأحبت أسرة مالكة شقتها، وأصبح لديها الكثير من الأصدقاء والمعارف. كما اكتشفت أيضاً أن لديها ميل طبيعي لتعلم اللغات، فعلاوة على اتقانها الإيطالية تعلمت الفرنسية والألمانية. لا، لن تعود أبداً، فثمة أسباب كثيرة لبقائها في أوروبا.

سألتها ڤاليري، وهي غارقة في أفكارها: «هل تودّين مرافقتي إلى المستشفى؟».

ـ طبعاً.

ـ قد أضطر إلى القيام ببعض المهمات لاحقاً، ولكن في وسعك أن تعودي إلى البيت مع نورا.

ـ لا يهم. لم تسنح لي الفرصة بعد لأمضي وقتاً طويلاً مع أبي.

ردت ستيفي وهي تشعر بالذنب لأنها أسرعت بالخروج من المستشفى يوم أمس من دون أن تعود لرؤيته.

لم يكن باستطاعة ستيفي اختيار وقت أفضل من هذا الصباح لزيارة والدها. فقد نقل من غرفة العناية الفائقة إلى جناح العمليات الجراحية، بعد أن بدأ يستعيد عافيته بشكل ملحوظ.

قال لها والدها بعد أن استيقظ من النوم: «كم أصبحت جميلة!».

كانت ستيفي جالسة إلى جانب سريره، تحل الكلمات المتقاطعة في صحيفة «نيويورك تايمز» وتشعر بالرضى التام عن نفسها بحيث تمكنت من الإجابة على نصف أسئلته دفعة واحدة.

ردت عليه ستيفي وهي تضحك: «سأقول لك ما أصبحت عليه... أصبحت فتاة إيطالية. ففي اليوم الأول لمغادرتي روما، تهت بين الإنكليزية والإيطالية من دون انتباه. فأمضيت عند الجمارك ضعف الوقت الذي يمضيه أي مسافر آخر، فقط لأن موظف الجمرك لم يعرف كيف يتصرف معي».

سألها والدها: «هل تعلمت إذن طهو السباغيتي الإيطالية؟».

ـ بالطبع، وأعدك أنها ستكون لذيذة جداً بحيث ستمضي بقية حياتك وأنت تحلم بها.

ـ مع الكثير من الثوم؟

وضعت ستيفي أناملها على شفتيها وقالت بصوت مرتفع وقد سال لعابها: «سأضع ما يكفي من الثوم لإبعاد مصاصي الدماء، كما وأنني سمعت بأن الثوم مفيد للقلب».

ـ ولكنه مضر بالعلاقات العاطفية.

فأجابته قائلة: «لا داعي للقلق حيال ذلك».

هز دافيد بلومفيلد رأسه: «أخطأت يا أميرتي. فأنت، على وشك الوقوع في الحب».

لم تتجرأ ستيفي أن تقول له أنها عرفت مسبقاً نصيبها من هذا الموضوع. وقالت له في سرها: «شكراً يا أبي، ولكن.. لا، شكراً».

لا يهمها أن تكرر تجربة الوقوع في الحب.

ـ هل ستبدأين بالجدال معي مثلما فعلت ڤاليري؟

ـ وهل سينفع الجدال معك؟

رد عليها وهو يبتسم: «كلا».

ـ هذا ما اعتقدته.

ـ أنت لا تصدقين أنني تكلمت مع والدتك، أليس كذلك؟

لا يتوقف الأمر على تصديقه أم لا، لأنه مقتنع تماماً بما حصل له، وليس لرأيها قيمة عنده فهو يدعي أنه تحدث مطولاً مع أمها وهما يتنزهان حول بحيرة سماوية. وقد أتت ڤاليري ونورا على ذكر الموضوع بعد وصول ستيفي إلى البيت. ووجدت أن رواياتهما ساحرة. ولكن هل هي تصدق فعلاً ما حصل معه؟ كانت تميل إلى الاعتقاد بأنه اختبر نوعاً من الرؤية.

ولكن لم يكن لديها فكرة عما رآه... أتراه حلم أو خيال؟ ولا فرق بين هذا وذاك.

ـ أنت الوحيدة التي لا تصدق أنني تحدثت مع والدتك.

ـ ليس الأمر هكذا يا أبي.

ـ لا تقلقي، فالوقت كفيل بأن يثبت أني على حق.

سأل من خلفها صوت رجل مألوف: «ماذا تريد أن تثبت».

تسمرت ستيفي مكانها واجتاحتها موجة عارمة من الهلع.

ـ إنه تشارلز توماسيللي.

كان آخر شخص تتوقع مقابلته هنا... آخر شخص تود أن تراه ثانية.

سأل والدها: «كيف تشعر الآن يا دافيد؟».

ـ بأفضل حال.

فأجابه تشارلز قائلاً: «وأنا أراهن على ذلك».

نهضت ستيفي عن كرسيها وقالت بلامبالاة وهي متلهفة للخروج من الغرفة: «سأترككما تتحادثان».

رد عليها والدها وهو يمد يده لها: «ليس من سبب يدعوك للخروج، فابتسامتك تمنحني أملاً جديداً بالحياة، أليس كذلك يا تشارلز؟».

شعرت ستيفي بالحرج الشديد، فلم تعطِ الفرصة لتشارلز ليرد معلقاً، بل شدت بسرعة على يد والدها وقالت: «من الأفضل أن يبقى في غرفتك شخص واحد فحسب».

وافقها تشارلز وقال: «أظنها محقة، كما وأنني أريد مناقشة أمر معك.. أعتقد أنك تريد معرفة نتيجة التحقيق الذي أجريناه حول وضع العمال المهاجرين».

حبست ستيفي أنفاسها وخشيت أن يلمح تشارلز إلى البلبلة السخيفة التي افتعلتها في مكتبه يوم أمس. ولكنها تنفست الصعداء عندما سمعته يذكر شيئاً حول مفوض الحكومة أوديل الذي بدأ بفتح تحقيق.

لم تحاول ستيفي النظر إلى تشارلز أو الالتفات لتواجهه، وانحنت تطبع قبلة على خد والدها وهي تقول: «ستوصلني نورا أو ڤاليري إلى البيت، ولكني سأعود ثانية هذا المساء حتى نكمل.. نقاشنا».

ـ سأكون بانتظارك يا أميرتي.

هزت ستيفي رأسها واستعدت نفسياً وهي تستدير لتبتعد عن سرير والدها. نظرت بخجل إلى تشارلز، فتلاقت نظراتهما على الفور، وراحا يحدقان ببعضهما البعض وكأن كل منهما عاجز عن مقاومة مغناطيسية الانجذاب المتبادل... قفز قلبها فرحاً وتساءلت عما إذا بادلها الإحساس نفسه في أعماق قلبه.

ـ مرحباً يا ستيفي.

ردت بصوت منخفض وهامس: «تشارلز».

ـ أراك لاحقاً يا أبي.

ـ مع السلامة يا أميرتي.

هرعت للخروج من الغرفة، وهي متشوقة للفرار. وعندما وصلت إلى نهاية الرواق كان قلبها يخفق بشدة بين ضلوعها وأنفاسها متقطعة... هذا كله بسبب لقاء بسيط مع تشارلز. ومن الواضح أن عليها أن تستعد نفسياً

لهذه اللقاءات القصيرة.

تذكرت أنها لم تكن على مثل هذا الخجل في ذلك الصيف... لثلاث سنوات خلت. وراعها الآن التفكير بتصرفاتها الوقحة حينها.

فإن كان تشارلز قد اعتبرها فتاة صغيرة يوم دعاها لتناول القهوة، عليها أن تبرهن له أنه على خطأ.

لم تجد صعوبة في العثور على عنوان منزل تشارلز، ولأن وادي البساتين بلدة آمنة لم يقفل تشارلز الباب الأمامي لمنزله.

عندما وصل إلى منزله، كانت الشموع المعطرة تضيء غرفة الجلوس، بينما وضعت زجاجة من العصير البارد في المطبخ.

ـ هل هذا أنت، يا حبيبي؟

نادت عليه ستيفي من غرفة الحمام. كانت تنتظره منذ أكثر من ساعة في المغطس المغطى بفقاقيع الصابون، حتى وهي تخشى أن يذوب الشمع ويسخن الشراب، ولكنها لم تجرؤ على الخروج من المغطس، خشية أن تتطاير الفقاقيع. وكان من المهم أن تجعله يعتقد أنها عارية تماماً، مع أنها في الحقيقة ترتدي ثوب استحمام.

سار متمهلاً إلى غرفة الحمام وتوقف فجأة عند الباب، عندما وقعت نظراته المذهولة عليها.

سألها مستفسراً: «ما الذي تفعلينه هنا بحق السماء؟».

ـ كان عليّ أن أثبت لك أني لست فتاة صغيرة.

ـ ماذا أنت إذاً... حورية بحر؟

اصطنعت ضحكة ناعمة وقالت بنبرة جدية: «لا، أيها الرجل السخيف، أنا امرأة، وإن اقتربت مني فسوف أبرهن لك ذلك».

ـ أخرجي من المغطس.

ـ ولكني كنت أتوقع أن تنضم إليّ.

ـ مستحيل.. يا عزيزتي. والآن، غادري هذا المنزل أو أستدعي

الشرطة.

أدخلت إصبع قدمها الكبير في فتحة الحنفية وقالت: «أعتقد أن إصبعي عالق».

ـ لا بأس، سأستدعي السمكري.

ـ ولكن يا تشارلز يا حبيبي..

ـ أنا لست حبيبك.

رد منتفضاً ودخل غرفة الحمام وأمسك بذراعها محاولاً إخراجها من المغطس. ولما وقفت على قدميها، رماها تشارلز بمنشفة وأخبرها أنه إذا لم تخرج من البيت خلال دقائق، فسوف يتصل بالشرطة.

قبل رحيلها، رأت ستيفي وميض الإعجاب في عيني تشارلز، ولاحظت النظرة التي رمقها بها لثانية أو ثانيتين، فلم يحبط هذا الموقف عزيمتها، بل حثها على وضع خطة جديدة.

***

قصدت ستيفي غرفة الانتظار بحثاً عن ڤاليري، فأخبرها أحد الممرضين أن شقيقتها ذهبت لشراء بعض القرطاسية للمكتب. وتذكرت ستيفي أنها سمعتها تقول إنها ستذهب لشراء بعض الحاجيات، ولكنها لا تذكر إذا ما كانت ڤاليري ستعود إلى المستشفى أم أنها ستذهب مباشرة إلى البيت.

لا بأس، عليها أن تبحث عن نورا.

عثرت ستيفي عليها في غرفة الطوارىء بعد خمس دقائق وهي تستعد لمباشرة العمل. كان المستشفى يشكو من نقص في عدد الموظفين، وبما أن والدها بدأ يتعافى، عادت نورا إلى العمل. فلم تتكبد ستيفي عناء الطلب منها أن تقلّها بسيارتها إلى البيت.

عادت إلى جناح العمليات الجراحية وهي تأمل أن يكون تشارلز قد غادر المستشفى. ولكن الحظ خانها والتقت به عند باب المصعد.

ـ اعتقدت أنك ذاهبة إلى البيت؟

ردت عليه باقتضاب: «عليّ أن أنتظر ڤاليري، أو أستقلّ سيارة أجرة».

سد الطريق عليها بذراعه وقال: «لا داعي للقيام بذلك، سأقلّك بسيارتي».

ردت عليه بجفاء: «لا، شكراً».

رد عليها وهو يدفعها إلى داخل المصعد بطريقة فظة بعض الشيء: «أريد التحدث إليك، على أي حال، وأرى أن الفرصة مؤاتية..».

ـ لا داعي لذلك يا تشارلز.

ـ بلى.

لاحظت وهو يصطحبها خارج المستشفى نحو موقف السيارات، أنه يقود السيارة الحمراء نفسها التي كان يقودها بالأمس، مما خفف عنها تأنيب الضمير، لأن السيارة لم تتضرر خلال سباقهما على الطرق الريفية الوعرة.

فتح لها باب السيارة، فصعدت ستيفي إلى داخلها. كانت تربط حزام الأمان، عندما صعد تشارلز بدوره إلى السيارة، وبدت أن الفسحة قد انكمشت مثلما تنكمش قطعة قماش فتلامست كتفاهما وللحظة وجيزة، أمسكت ستيفي أنفاسها.

قالت له بعدما خرج بسيارته من الموقف التابع للمستشفى وهي تحاول أن تلتصق قدر المستطاع بباب السيارة: «قلت إنك تريد التحدث إليّ».

التفت نحوها وقد ارتسمت على ثغره تلك الابتسامة الصبيانية الملتوية التي لطالما وجدتها جذابة: «أظن أنه من الأفضل أن نناقش الموضوع ونحن نحتسي كوباً من الشاي المثلّج... أظنك ستدعيني إلى منزلك، أليس كذلك؟».

أرادت أن تقول له إن ليس في نيتها أن تدعوه إلى الدخول، ولكنها بدلاً من ذلك قالت له: «إذا كنت ترغب بذلك».

ـ نعم، أرغب بذلك.

في العادة، تستغرق المسافة التي تفصل بين المستشفى والمنزل خمس عشرة دقيقة. ولكن تشارلز تعمّد أن يسير بسرعة أقل بكثير من السرعة المسموح بها... كانا متقاربين جداً من بعضهما البعض في هذه السيارة الصغيرة الضيقة بحيث لم يكن باستطاعتها تجنب الاحتكاك به، حتى ولو بذلت جهدها. حاولت أن تنسى عناقه في الأمس أو أن لا تتساءل عما سيحدث لو كرّر فعلته هذه.

أغمضت ستيفي عينيها حتى لا تصرخ به ليسرع أكثر... لماذا يطيل أمد هذه اللحظات الطويلة؟ يمكنه على الأقل أن يبادلها الأحاديث الودية.

إن كان تشارلز مصمماً على التزام الصمت، فعليها أن تقول شيئاً يخفف من وطأة هذا الشعور المريع.

ـ يبدو والدي مرتاحاً أكثر، أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد.

ـ لديه الآن سبب للعيش. أنا عاجزة عن الاستقرار على رأي بالنسبة لحلمه، ولكن..

ـ أي حلم؟

لم تصدق ستيفي أن لسانها زل حول هذا الموضوع... فبسبب توترها، وتشوقها لكسر جدار الصمت بينهما، تفوهت بالسر الذي ينبغي أن يبقى حصراً على أفراد أسرتها.

ـ آهه.. لا شيء، ليس الأمر مهماً.

شعرت بالارتياح عندما انعطف تشارلز عن الطريق الرئيسية إلى الممر المؤدي إلى منزلها ليتوقف بعدها أمامه.

لم تنتظر ستيفي خروجه من السيارة، بل فتحت الباب ووثبت من

السيارة وقد أخرجت مفاتيح البيت من حقيبتها. فتحت باب المنزل ورمت حقيبة يدها على الطاولة الجانبية القائمة عند المدخل وقادته بسرعة إلى المطبخ.

كانت نورا قد حضرت بعض الشاي المثلّج في الصباح. وشكرت ستيفي في قلبها شقيقتها على اهتمامها بهذه الأمور وهي تخرج إبريق الشاي البارد من الثلاجة. أخذت كوبين وضعت فيهما الثلج وقطعة من الليمون، وصبت فوقها الشراب.

ـ ماذا تريد أن تقول لي؟

سألته ستيفي أخيراً، وهي تستند إلى دفة المطبخ، ولم تكن تدرك قوة النيران المشتعلة في داخلها حتى أمسكت كوب الشاي المثلّج بين يديها، واستمتعت بالبرودة التي سرت في جسمها.

رد عليها تشارلز قائلاً: «أريد أن أكلمك عما حدث البارحة».

تمهل قليلاً في الحديث وهو ينظر من النافذة المطلة على الحديقة الخلفية والتي يقع وراءها اسطبل الخيل ثم استطرد: «أو بالأحرى، عما كان ينبغي أن نتفادى حدوثه».

***

٤ ـ اطو صفحة الماضي

ردت ستيفي بحزم وصلابة: «من الأفضل ألا نتحدث في هذا الموضوع».

لم ترغب في سماع المزيد عن اتهاماتها الطائشة وتصرفاتها المتهورة. ولا تود أن تسمع تشارلز يقول إنه نادم على عناقه لها.

فقالت بسرعة: «إذا كان لا بد من أن يعتذر أحدنا فأنا سأفعل، لقد كنت مخطئة».

كان تشارلز يدير لها ظهره وهو يحدق من النافذة إلى الاسطبلات، فرد عليها بهدوء: «لا أعتقد أن أحداً على الإطلاق استطاع أن يغضبني بقدر ما فعلت».

استدار نحوها ثم وضع كوب الشاي المثلج جانباً ودس يديه في جيبي بنطاله واستطرد قائلاً: «ولم أقابل قط امرأة استطاعت أن تثير انفعالاتي مثلما فعلت».

انفرجت أسارير ستيفي ثم هزت كتفيها وردت قائلة: «اعتذرت لتوي عن تهوري واعترفت بأني مخطئة. وعذري الوحيد هو أني أمضيت أسبوعاً مريعاً وأنا أحاول إيجاد وسيلة للعودة إلى دياري، كما وأنه لم يتسنّ لي النوم جيداً لعدة أيام وأنا..».

قاطعها قائلاً: «هذا ليس ضرورياً. لم آت بحثاً عن اعتذار.. وفي الواقع أنا هنا لأعتذر عمّا بدر مني، وأريدك أن تعرفي أنني آسف لملاحقتي

لك. وما كان عليّ القيام بذلك، فلو أجفل فيوري مني لرماك عن ظهره».

ـ كما وأنك كدت تحطم سيارتك.

ـ هذا صحيح.

اقترحت ستيفي وعلى وجهها ابتسامة واهنة: «دعنا نتجاوز هذا الأمر... أخطأت في الهرب منك... كان تصرفاً... صبيانياً».

ـ وكنت غاضبة أيضاً.

قالت وهي تردد صدى كلماته بإيجاز: «لم أقابل يوماً، رجلاً استطاع أن يثير انفعالاتي مثلما تفعل أنت».

ارتسمت على فمه ضحكة دافئة ولطيفة، وقال: «يبدو أن كلينا يثير سخط الآخر».

ولوجه الغرابة، وجدت ستيفي ابتسامته ساحقة مثل عناقه...

ـ من المؤكد أن تاريخنا حافل بالتصرفات المزعجة.

تطلب الأمر منها جرأة كبيرة لتأتي على ذكر الماضي. ولكنها أملت فجأة أن ينسيا ذلك أيضاً.

ـ ما كنت لأسامح نفسي أبداً، لو حدث لك مكروه.

ـ لم أكن فعلاً في خطر أن يوقعني فيوري عن ظهره.

ـ كانت هذه طريقة مريعة لنتقابل ثانية.

تكلم تشارلز بصوت أجش وهو يدنو منها، فأخفضت بصرها وقد لاحظت أن عينيه تحدقان بفمها.

اقترب منها أكثر ثم رفع يده ولامس خدها. وأزاح بأصابعه خصلة شاردة من شعرها، ووجدت ستيفي نفسها عاجزة عن الحراك... أو التفكير... وبالكاد تستطيع أن تتنفس.

همس في أذنها: «ولكنني لست نادماً أبداً على عناقي لك».

وتراجعت ستيفي إلى الوراء وهي ترتجف ثم انطلقت إلى الجهة المقابلة من الغرفة.

ـ ستيفاني؟

ـ نادني . . . نادني . . .

ردت متلعثمة وقد أخذت يداها ترتعشان بشدة مما دفعها إلى وضعهما خلف ظهرها بحركة حادة .

ـ أفضل أن أدعوك ستيفاني، فأنت لم تعودي فتاة صغيرة.

ابتسمت بابتهاج. لقد حانت اللحظة المناسبة لتقنعه بأنها أصبحت محنكة بعد قضاء ثلاث سنوات في أوروبا. كانت متأكدة أنها من نوع النساء الذي يتوقعه، ويرغب به.

ـ كان عناقك رقيقاً، وهذا ما أدهشني. ألا تعلم أن معظم الرجال لا يعانقون بهذه الطريقة؟ إذ غالباً ما يكون العناق قوياً، فتنقطع أنفاس المرأة.

رد تشارلز عليها وهو يرفع حاجبه: «أستطيع تخيل ذلك».

وضعت يديها على وركيها مثلما تفعل عارضات الأزياء وأرخت شعرها البني الطويل: «لم أعد الفتاة نفسها التي قابلتها لثلاث سنوات خلت. لقد أصبحت أكثر نضجاً».

ـ هذا ما يبدو لي.

قالت وهي تخرج من المطبخ: «أشكرك على إيصالي».

أملت أن يلحق بها تشارلز لأنها لم تكن متأكدة من قدرتها على الاستمرار في هذا التمثيل أكثر من ذلك.

سألها بصوت ينم عن الخيبة، وهو يمد يده ليلتقط كوب الشاي المثلّج، وقد بدا أنه لا يرغب بالمغادرة قريباً:

ـ ماذا علمك أيضاً الرجال الذين يعانقون بقوة؟

استدارت نحوه وابتسمت برزانة، وقد قررت أن تعطيه الجواب الذي يستحقه فقالت بطيش: «التقيت رجالاً من جميع الجنسيات ـ طلاب من كل أنحاء أوروبا ـ وقد سنحت لي الفرصة لآخذ حصتي العادلة من

المعانقات».

كانت غالبية هذه المعانقات بريئة . . . ولكن ينبغي إخفاء الأمر عنه.

تجهم وجه تشارلز، ووضع كوبه على الطاولة بحدة فتطاير الشاي خارج الكوب ثم سار نحو الباب وهو يقول بنبرة باردة: «وداعاً يا ستيفي».

لم تفهم ما قاله حتى سمعته يغلق باب المنزل الأمامي بقوة فأدركت أنه يقصد إهانتها. فبعدما رأى تمثيليتها الدرامية أعاد النظر في الأمور ووجد أنه كان على خطأ، فهي لم تنضج بما فيه الكفاية بعد وبقيت على حالها، فتاة حمقاء طائشة.

* * *

كانت ستيفي تتجول بين أشجار التفاح التي ظهرت براعمها، وهي تفكر في تصرفها الأحمق مع تشارلز. كان غروب الشمس يضفي لوناً زهرياً رائعاً على البستان. لطالما تنزهت ستيفي في هذا المكان وهي لا تزال فتاة يانعة، عندما تحتاج للاختلاء بنفسها.

كانت تجد هنا الهدوء والسكينة اللذين يخففان عن كاهلها أعباء الحياة، التي أصبحت كثيرة، منذ لقائها الأخير مع تشارلز. مضت عدة أيام لم تره فيها، مما زاد من عذابها فثمة أسئلة كثيرة عالقة بينهما، وكلام كثير لم يقل.

التفتت ستيفي عندما سمعت وقع خطى وراءها ورأت نورا تتقدم نحوها.

تأوهت نورا: «يجب أن تفعلي شيئاً!».

سألتها باستغراب: «حول ماذا؟».

ـ يجب أن تساعدي ڤاليري. فأنت أكبر مني سناً، لديك خبرة أكثر بالرجال.

كبحت ستيفي رغبتها بالضحك لسخرية هذا الكلام، نظراً لتصرفاتها

المضحكة أمام تشارلز وردت قائلة: «ما الذي أصابها؟».

ـ إنها ترتكب أكبر غلطة في حياتها.

أجابتها نورا بصورة درامية، ولم يكن من عادة شقيقتها أن تبدو منزعجة إلى هذا الحد. ولسوء الحظ، لم تكن ستيفي الشخص المثالي لإسداء النصح لڤاليري في قضايا الحب.

ثم تابعت نورا كلامها: «أخبرتك أن ڤاليري ودكتور وينستون يحبان بعضهما البعض. وقد شهد على ذلك كل من يعرفهما، فكلما تواجدا معاً، لا يكفان عن النظر إلى بعضهما البعض».

ـ أين المشكلة إذن؟

ـ لقد انفصلا عن بعضهما.

ـ ماذا تعنين بذلك؟

ـ كلاهما يتجنب الآخر، وأعتقد أنهما لم يتبادلا الكلام منذ أيام.

مست كلمات نورا وتراً حساساً. فستيفي تدرك تماماً ما الذي تفعله ڤاليري، لأنها تعاني من الشيء نفسه. فهي لم تلتقي بتشارلز منذ أن أقلها بسيارته من المستشفى إلى البيت. وكان من الواضح أن كليهما يبذل جهداً لتجنب الآخر، تماماً مثلما يحصل بين ڤاليري والدكتور وينستون.

غمغمت ستيفي: «أنا لا أعرف كيف يسعني مساعدتها».

فردت نورا قائلة: «تحدثي إلى ڤال، علها تصغي إليك».

ـ وماذا تتوقعين مني أن أقول لها؟

ترددت نورا قليلاً ثم أجابت عابسة: «لا أعرف، ولكن بإمكانك أن تفكري بشيء ما. لقد حاولت معها أقصى جهدي ولكن يبدو أنني لم أستطع التأثير عليها، ولكنك تعرفين ڤاليري أكثر مني، ربما باستطاعتك أن تنفذي إلى أعماقها».

ردت ستيفي عليها بخفة: «أنا مسرورة لثقتك بقدراتي».

قالت نورا والجدية بادية في عينيها الزرقاوين: «أنا فعلاً أثق بك،

فأنت مختلفة تماماً عما كنت عليه قبل رحيلك».

وكما فعلت مع تشارلز، جهدت ستيفي لتبدو طليقة اللسان ومتفهمة لأحوال الدنيا: «هذه ثمرة غياب ثلاث سنوات عن دياري».

ـ أنا لم أقصد ذلك، بل عنيت أنك أصبحت أكثر مراعاة للآخرين... وأكثر نضجاً، على ما أعتقد. فقبل رحيلك عن وادي البساتين، كنت تريدين أن تثبتي نفسك، ولكنك تغيرت الآن. وأنا لا أتخيلك تقدمين على بعض التصرفات المجنونة التي اعتدت القيام بها.

لم تكن نورا على علم بما أقدمت عليه من تصرفات تدل على «نضجها» في الأيام القليلة الماضية. ومن حسن حظها أن أحداً من أفراد أسرتها لم يعلم بالألاعيب المخزية التي قامت بها منذ ثلاث سنوات لتلفت انتباه تشارلز.

ـ أذكر يوم امتطيت «برنسيس» من دون سرج وتجولت على متنه في الجوار، ومن حسن حظك أنك لم تقعي عنه وتكسري أضلاعك.

تذكرت ستيفي هذه الحادثة جيداً.. حدث ذلك قبل موت أمها بوقت قصير. وكانت تشعر بالاستياء الشديد مما دفعها للقيام بهذه المخاطرة علّ ذلك يساعدها على التخلص من ألمها وحزنها.

ولكن نورا محقة تماماً، فما قامت به كان تصرفاً غبياً.

قطعت ستيفي وعداً لشقيقتها الصغرى: «حسناً، سوف أتكلم مع ڤاليري، ولكنني لا أضمن النتيجة».

***

حاولت ستيفي التحدث مع شقيقتها ولكن الأمور لم تسر كما خططت لها. وأدركت من نظرة واحدة إلى ڤاليري أن شقيقتها تتعذب... وعلى الرغم من جهود ڤاليري لإخفاء الأمر، عرفت ستيفي العوارض من خلال خبرتها المحدودة في شؤون الحب.

دخلتا في نقاش طويل عن شؤون الحب، وأدركتا في نهاية المطاف أن

كلتيهما غير مؤهلة لإسداء النصح للأخرى. خطر لهما أن تدعيا نورا لمشاركتهما الحديث، ونتج عن هذا الاقتراح نوبة من القهقهة، لأن نورا تواعد وتخرج مع الكثير من الشبان، ولكنها لم تقع في الحب يوماً.

الأمر الوحيد المهم الذي لفت انتباه ستيفي خلال نقاشهما هو ما جاءت ڤاليري على ذكره عرضياً. فقد أبدى تشارلز اهتماماً شديداً بعودتها، حتى أنه حاول تحديد مكان وجودها بعد أن تأخرت عن موعد وصولها.

ومع أنهما لم تتحدثا أبداً بصراحة عن علاقتها بتشارلز، فقد تبين أن ڤاليري تعرف حقيقة شعور ستيفي. لم تحاول ستيفي أن تخفي الأمر، ولكنها أخذت نفساً عميقاً ثم اعترفت لأختها بتصرفاتها الحمقاء، فكانت ڤاليري من الحذق بما يكفي لتفهم ما هو شعور ستيفي نحو تشارلز.

***

بعد عودته إلى المنزل، شعر دافيد بلومفيلد بتحسن كبير، وكانت ستيفي تأمل أن يمر تشارلز إلى البيت لزيارة والدها الذي كان خروجه من المستشفى بمثابة عيد.

وكم كانت فرحة ستيفي كبيرة لرؤية ڤاليري وكولبي يختليان ببعضهما البعض للحظات قليلة بعد ظهر ذلك اليوم. وعلى الرغم من أنهما تنزها معاً في البستان، فقد بدا وجه ڤاليري شاحباً وحزيناً عند عودتهما، بينما لزم كولبي الصمت طوال حفل العشاء الذي أعددنه احتفاء بخروج والدهن سالماً من المستشفى.

حاولت ستيفي أن تتحضر نفسياً للقائها التالي مع تشارلز، ولكن لم يخطر لها أبداً أن هذا اللقاء سيحصل عند محطة الوقود.

قال لها ديل، صاحب المحطة، محيياً عندما دخلت لتدفع ثمن الوقود وتشتري علبة مشروبات غازية: «ما هذا يا ستيفي بلومفيلد؟ أقسم أن

جمالك هو الدواء الشافي للناظرين».

كان ديل في الستين من عمره، ويعشق التغزل بالنساء. فأجابته قائلة: «وأنا أيضاً سررت برؤيتك ثانية. بكم أدين لك؟».

ـ لو كنت غنياً، لما أخذت منك المال لأن النظر إلى وجهك الجميل يغني عن المال... أليس كذلك يا تشارلز؟

رد عليه تشارلز بنبرة تفتقد إلى الحماس: «هذا صحيح».

ـ مرحباً يا تشارلز.

حيته ثم استدارت نحوه وهي تحاول أن ترسم على وجهها ابتسامة خفيفة، وقد عزمت على ألا تدعه يربكها كما يفعل في كل مرة يتقابلان.

ـ ستيفاني!

ـ لا أعرف إذا وصلك الخبر، ولكن أبي غادر المستشفى وعاد إلى البيت.

أخرج تشارلز محفظته من جيب بنطاله الخلفية ودفع ثمن الوقود الذي ملأ به سيارته وقال: «نعم، لقد علمت ذلك».

نزعت ستيفي غطاء علبة المشروب الغازي وأخذت منه جرعة كبيرة. وكان الشراب بارداً ولذيذاً، مما خفف من جفاف حلقها، ثم قالت وهي تأمل الإفصاح عما تفكر به: «حسبتك ستمر لزيارتنا».

لم يرد عليها فيما كان يلحق بها إلى الخارج. كان عامل المحطة يغسل زجاج سيارتها، وتمهلت ستيفي وهي ترغب بأن تقول شيئاً ما، شيئاً قد يعيد علاقتها بتشارلز إلى نقطة الصفر.

ـ أذكر أن إحدى أولى افتتاحياتك كانت عن محطة ديل، أليس كذلك؟

رد عليها بجفاء: «ذاكرتك قوية».

انتهى الشاب من غسيل نوافذ سيارتها ولم يعد لديها حجة للتسكع. فتحت باب سيارتها على مضض وهي تقول: «سررت بلقائك..

بالمناسبة، أخبرتني ڤاليري أنك قمت بعدة محاولات للعثور عليّ، بينما كنت في طريق العودة من إيطاليا، وأنا أقدر لك كل ما بذلته من جهود من أجل أسرتي».

هز كتفيه بعدم اكتراث... وضعت قدمها داخل السيارة ثم تمهلت والتفتت لتنظر إلى تشارلز... كان عليها أن تقول شيئاً ما.

ـ تشارلز.

نظر إليها مذهولاً: «أريدك أن تعرف شيئاً».

ـ ما هو؟

ـ أنا أقدر جداً صداقتك لأسرتي.. ولي.

وانسلت داخل سيارتها، بينما تسارعت دقات قلبها، وانطلقت تنهب الأرض من دون أن تنظر إلى الوراء.

***

لسوء الحظ، لف الاستياء المنزل عند المساء. فقد جاءت نورا بأخبار عن تقرب كولبي من ممرضة أخرى، صديقة نورا، حتى أنهما خرجا معاً لثلاثة أيام متتالية.

وجدت ستيفي أنه من الأفضل إخفاء الأمر عن ڤاليري حتى تتحقق نورا تماماً من الخبر. ولكن تراءى لستيفي أن ڤاليري تعرف في قرارة نفسها ما يحدث. ومع أن شقيقتها لم تقل شيئاً لأي من أفراد الأسرة، فقد كانت ستيفي على ثقة بأنها تستعد للعودة إلى تكساس وإلى عملها كنائب رئيس شركة «تشيبس»، ومركزها الرئيسي في مدينة هيوستن.

أحس الجميع بالتوتر الذي ساد المنزل، ولكن أحداً لم يتفوه بكلمة خلال تناول الطعام.

اعتذر والدهن، مدعياً التعب، وفور انتهائه من تناول الطعام أوى إلى غرفته بمساعدة نورا.

ولم تكن ڤاليري في مزاج للمسامرة أيضاً، لأنها اعتذرت بدورها وأوت إلى غرفة نومها، تاركة ستيفي ونورا وحيدتين.

غادرت نورا المنزل بعد أن أنهتا غسل الصحون والأطباق، وقصدت صديقة لها لمساعدتها في التحضير لحفل زفافها.

تأملت ستيفي المطبخ وهي تشعر بالوحدة، وقررت أن تعد صلصة المعكرونة التي وعدت والدها بها. فأخذت من الخزانة أكبر قدر وجدتها وراحت تحضر المكونات... البندورة الطازجة والبصل والثوم، والأعشاب المجففة، وزجاجة من الخل الأحمر اللذيذ الطعم.

أدارت شريط أوبرا عايدة على الراديو فترددت أصداء الموسيقى في أنحاء المطبخ.

عثرت على مئزر أبيض قديم اعتاد والدها استعماله منذ سنوات خلال حفلات الشواء في الهواء الطلق، ولفته حول خصرها.

وبعد مرور نصف ساعة، كانت تحرك آخر ما وضعته من مكونات في القدر، وهي تغني بأعلى صوتها.

تنبهت ستيفي إلى أن أحدهم يدق.

فهرعت عبر المطبخ حافية القدمين وفتحت الباب لترى تشارلز يقف هناك، حاملاً نبتة من الأضاليا.

ـ تشارلز! ما الذي تفعله هنا؟

رد عليها بنبرة جافة: «طرقت الباب الأمامي، فلم يفتح لي أحد».

اعتذرت منه وهي تتوجه إلى الراديو لتطفئه: «أنا آسفة، تفضل بالدخول».

قدم تشارلز النبتة لستيفي وهو يقول: «أظنك قلت إن أباك قد خرج من المستشفى وعاد إلى البيت».

ردت عليه وهي تضع النبتة جانباً: «هذا صحيح، إني واثقة من أن والدي سيحب هذه النبتة».

ـ إنها ليست لدافيد.

ـ أليست له؟

ـ لا، أنا كنت... نشرنا في هذا العدد إعلاناً عن مشتل «الإبهام الأخضر»، ورأيت أن شراء شيء من عندهم سيكون لفتة طيبة. وأظنك تقدرين الأضاليا أكثر من والدك.

لم تجد ستيفي ما تقوله فتمتمت قائلة: «شكراً لك».

هز بكتفيه، وقد بدا متلهفاً للرحيل. فتقدم خطوة نحو الباب بينما كانت ستيفي تحاول التفكير بشيء يبقيه هنا، معها.

ـ هل تناولت الطعام؟

سألته بسرعة، رغم أن الصلصة لم تكن قد بدأت بعد بالغليان.

ـ لماذا تسألين؟

ـ لقد أعددت صلصة المعكرونة.. طلب مني والدي أن أطهو له طعاماً إيطالياً و.. حسناً، إذا كنت لا تمانع في الانتظار قليلاً، سيسعدني أن أقدم لك طبقاً منها.

وعندما أنهت كلامها، بدا من نبرة صوتها أن أنفاسها تتقطع.

فأجابها تشارلز قائلاً: «لقد تناولت عشائي، على أي حال شكراً لدعوتك. ولكن يسرني أن أتناول فنجاناً من القهوة».

وأومأ برأسه باتجاه وعاء القهوة، الموضوع إلى جانب الفرن.

فقالت له وهي تسكب فنجانين من القهوة: «على الرحب والسعة. لو لم يكن أبي نائماً لناديته ليتناول القهوة معنا».

أشار تشارلز بيده إلى الراديو وقال: «مع كل هذه الضجة؟».

ـ مؤكد، إنه يحب الاستماع إلى هذا النوع من الموسيقى كما وأن غرفته تقع في الطرف الآخر من البيت، وأشك في أنه يستطيع سماعها.

حمل تشارلز كوبه بين يديه وتقدم منها ليتفحص ما تقوم به: «أرى أنك تعلمت الطهو خلال سفرك».

اعترفت له: «نوعاً ما».

حرك الصلصة بملعقة خشبية ثم تذوق القليل منها. ورفع حاجبيه قائلاً: «إنها لذيذة الطعم».

ثم أضاف: «لا بد أنك كنت تحاولين التأثير على أحد الرجال الإيطاليين».

إن الرجل الوحيد الذي أرادت التأثير عليه هو الرجل الواقف في المطبخ إلى يمينها في تلك اللحظة بالذات.

أقرت له فيما كانت ترمي علب رب البندورة الفارغة في سلة النفايات: «كانت الدراسة تأخذ كل وقتي، فلم يتسنّ لي أن أخرج كثيراً».

ـ هذا ليس الانطباع الذي أعطيتني إياه ذاك اليوم.

ترددت في الإجابة: «أعرف ذلك، من المؤكد أن التصرف بغباء في حضورك أصبح عادة عندي».

فقال تشارلز بنبرة غريبة: «لطالما عانيتُ المشكلة ذاتها».

أذهلها اعترافه غير المتوقع، فاستدارت على عقبيها لتواجهه، وهي تقول بصوت أجش هامس: «لم أخرج مع أي رجل أكثر من بضع مرات».

ـ لا بد أنك وقعت في حب أحدهم.

هزت رأسها بالنفي وقد تشابكت نظراتهما، فبدا لستيفي أنها فقدت تماماً الإحساس بالوقت.

كان تشارلز هو من بادر إلى كسر جدار الصمت بينهما: «اهه، يبدو أن القِدر يغلي».

ـ أو.. اللعنة! نسيت أن أطفىء النار.

هرعت عبر المطبخ لتطفىء الموقد ثم أخذت تحرك الصلصة آملة ألا تكون قد احترقت.

فيما كانت واقفة إلى جانب الفرن، ساورها شعور مدهش بالارتياح في وجود تشارلز.

تحترق».

سحب كرسياً وجلس عليه.

بينما كانت تجلب الكريما والسكر، سمعت ضجيجاً في الغرفة العلوية، فنظرت إلى السقف، ثم عبست.

ـ هل من خطبٍ ما؟

جلست إلى الطاولة وصبت الكريما في كوبها ودفعت علبة السكر إلى تشارلز. وقالت له بصراحة: «أنا قلقة على ڤاليري، ولكن أبي ليس على علم بالأمر، فلديه الكثير مما يشغل باله ولا يجب أن يقلق على أي واحدةٍ منا».

أضاف تشارلز ملعقة من السكر إلى قهوته، وسألها باستغراب: «كيف عرفت أني أضيف السكر إلى القهوة؟».

أشاحت بنظرها عنه: «لقد تناولنا مرة القهوة معاً، ألا تذكر؟».

رد عليها قائلاً: «لا».

فضلت ستيفي ألا تستعيد هذه الذكرى التعيسة مرة أخرى، خاصة وأنه لا يتذكرها. أخفضت بصرها لتحدق إلى الطاولة وقالت: «كان ذلك عندما طلبت مني لأول مرة أن أتركك وشأنك».

تجهم وجهه ثم هز رأسه والحيرة بادية عليه. وكم أدهشها ألا يذكر أبداً حادثة تتذكرها هي بجميع تفاصيلها المؤلمة.

فقررت أن تغير مجرى الحديث: «أعدت نورا الكعك المحلى، أتريد بعضاً منه؟».

رفض تشارلز بإيماءة من رأسه، واتجه بنظره نحو السقف: «أخبريني عما يحدث مع شقيقتك».

لم تكن ستيفي متأكدة ما إذا كان يجدر بها إخباره عن ورطة ڤاليري، ولكنها تذكرت في تلك اللحظة أن نورا أخبرتها أن تشارلز كان معهم ليلة إجراء العملية لوالدها، ومن المحتمل أنه عرف بما يدور بين كولبي

وڤاليري.

ردت عليه: «إنها مغرمة».

ـ بالدكتور وينستون، أليس كذلك؟

أومأت ستيفي برأسها موافقة: «لقد أغرما ببعضهما البعض».

ـ ما المشكلة إذاً؟

لم تعرف ستيفي كيف تشرح له الوضع، خاصة وأنها نفسها لم تفهمه تماماً. فهزت كتفيها وقالت: «تعلم جيداً أن ڤاليري سيدة أعمال موهوبة، ولكن كولبي يريد ربة منزل فحسب، ولا عيب في ذلك، بالطبع، ولكن هذا إجحاف بحق ڤاليري. ولا يبدو أن أياً منهما على استعداد للتنازل».

رد عليها تشارلز وهو يحتسي قهوته: «إذا كانت تحبه، فربما عليها أن تقوم بالخطوة الأولى».

ـ ولماذا لا يفعل كولبي؟ لماذا ينبغي على المرأة دائماً أن تتنازل؟

لزم تشارلز الصمت لحظة ثم قال: «لم آت إلى هنا لأتجادل معك حول شؤون أختك».

ـ أعرف هذا، ولكنني وجدت تعليقك متحيزاً..

وتوقفت عن الكلام لأنها لا ترغب بالشجار معه. لقد تشاجرا كثيراً في السابق وهي لا تريد أن يؤول هذا اللقاء إلى ما آلت إليه لقاءاتهما السابقة كلها.

فقالت له: «أنا آسفة، لكنني قلقة جداً عليها... أنا متأكدة تماماً من أنها تجري الترتيبات للعودة إلى تكساس.. وأتمنى ألا تفعل».

ـ لم تمضي الكثير من الوقت معها، أليس كذلك؟

دقت ستيفي بالملعقة على حافة كوبها وراحت تحدق في تموجات القهوة بداخله وقالت: «ليس هذا هو السبب الوحيد لرغبتي في بقائها».

صمتت لحظة ثم استطردت: «على المرء أن يجرّب كل الخيارات في التوصل إلى حل مرضي قبل أن يترك مشاكله وراء ظهره، لأن ذلك قد

يعقد الأمور أكثر. ولكنني لا أستطيع أن أخبر فاليري بذلك، إذ عليها أن تكتشف ذلك بنفسها، على ما أظن. أنوي التكلم معها، ولكنني أشك في أن هنالك فائدة ترجى من ذلك».

ظهر التعاطف في عيني تشارلز السوداوين: «أتمنى أن تصغي إليك».

شكرته ستيفي بابتسامة وقالت: «وأنا أيضاً، ولكن يبدو أنها صعبة المراس تماماً كشقيقتها».

فرك تشارلز عينيه، فأدركت أنه مرهق. قال لها وهو يبتسم بوهن: «أنا لن أجادلك في هذا الأمر».

ـ أما زلت تعمل كثيراً؟

أومأ رأسه إيجاباً: «من خمسين إلى ستين ساعة أسبوعياً. لقد أصبحنا نصدر عددين في الأسبوع ونتطلع إلى تحويلها إلى صحيفة يومية... أشعر في بعض الأيام وكأني تزوجت تلك الصحيفة».

تردد صدى كلمة «متزوج» في رأسها... ففي أحد الأوقات، كانت ستيفي مقتنعة تماماً بأنها وتشارلز سيتزوجان، وهذا ما جعلها تعاني من مصاعب عديدة في علاقتها مع تشارلز. وافترضت بسذاجة أن كل ما عليها أن تفعله هو أن تقنعه بأنهما خلقا ليحب أحدهما الآخر. أما الآن فقد عرفت أن أمور الحياة... لا تجري على هذا المنوال.

ـ أما زلت تهتم بكافة شؤون الصحيفة؟

سألته وهي تتذكر أن عمله يقضي بأن يواكب مراحل الإصدار بدءاً من الكتابة والتحرير والتصميم الفني، وصولاً إلى التوزيع.

ـ قليلاً، لقد أدخلنا الآن نظام الكومبيوتر الذي يسهل الأعمال.

ـ أما زلت تستخدم مساعداً مبتدئاً؟

أسند تشارلز ظهره إلى الكرسي وهز رأسه: «نعم، ويني الطالبة في السنة الثالثة في جامعة بورتلاند».

اجتاحتها موجة عامرة من الغضب وهي تسأله: «ماذا حدث لِـ لاري؟

ظننته يعمل معك».

لمجرد التفكير بأن تشارلز يقضي ساعات طويلة مع طالبة جامعية جذابة، أحست ستيفي بالخوف والرهبة.

ولكن لا داعي للقلق حول التنافس على تشارلز لأنها الآن خارج السباق.

***

٥ ـ صداقة أم حب؟

ـ هل من أحد هنا؟

سمعت ستيفي صوت أبيها حتى قبل أن يدخل إلى المطبخ. كان يرتدي عباءة من القماش المضلع، مشدودة عند الخصر مما أبرز نحوله.

ـ مرحباً يا دافيد.

حياه تشارلز وهو ينهض ليصافحه. وتقدم والدها ببطء من الطاولة التي يجلسان إليها، بعد أن أبى أن يساعده تشارلز.

قالت ستيفي وهي تبتسم برقة: «ظننتك نائماً».

على الرغم من أن المحنة قد مرت بسلام إلا أن شقيقتيها أخبرتاها مراراً عن العذاب الذي عانتا منه، ووالدهما على شفير الموت. وهي تشعر الآن وكأن حبها له قد تجدد بعد نجاته من الهلاك.

رد عليها دافيد بمرح:

ـ كيف تتوقعين مني الاسترسال في النوم فيما هذه الروائح الشهية تفوح من المطبخ؟ أقسم أنها تشتت تفكيري.

ـ إنها رائحة صلصة المعكرونة الإيطالية.

نظر والدها إليها باستغراب: «ولكننا تناولنا العشاء للتو».

ـ أعرف ذلك. ولكن الصلصة تحتاج إلى بضع ساعات لتصبح جاهزة، وكنت أنوي أن أفاجئك مساء الغد.

هز والدها رأسه استحساناً: «هذا عظيم، يا أميرة».

ثم التفت إلى تشارلز وهو يبتسم: «سررت برؤيتك يا صبي».

ـ وسررت برؤيتك أيضاً يا عجوز.

بدا واضحاً أنهما غالباً ما يتبادلان المزاح.

سأل دافيد تشارلز مستفهماً: «هل كنت في الجوار وقررت أن تمر لزيارتنا؟».

لا يسلك أحد هذا الطريق إلا ليزور آل بلومفيلد، والكل يعرف ذلك.

ـ لقد جئت لأطمئن عليك.

أجابه تشارلز، وقد تحول نظره لا إرادياً نحو ستيفي. فتلاقت نظراتهما لفترة وجيزة قبل أن تشيح وجهها عنه.

ألح والدها بالسؤال: «أهذا هو السبب الوحيد؟».

رد عليه وهو يشير بيده إلى نبتة الأضاليا: «وجلبت هذه لستيفاني».

ـ لا أظنك ميالاً إلى فتاتي الصغيرة، أليس كذلك؟

ـ أبي!

قاطعته ستيفي بسرعة: «أتريدان أن تشربا شيئاً؟».

ـ لا أريد شيئاً، شكراً، لقد جئت إلى المطبخ لأتأكد من أنني لم أحلم بروائح الثوم والكزبرة، سأترككما الآن على راحتكما.

ترنح والدها وهو يقف، فهبّت ستيفي لمساعدته، ولكنها عادت وتراجعت خطوة إلى الوراء حتى تتركه يهتم بنفسه.

وبدا لها أن تشارلز يشاطرها الرأي، إذ وقف إلى جانبها وقد بدا على وجهه القلق.

ـ سأرافقك إلى غرفتك.

قالت له ستيفي ذلك بعد أن أدركت أن الجهد الذي بذله في النهوض عن الكرسي والسير بضع خطوات جعل قواه تخور.

رد معترضاً: «هراء... عندك ضيف، ولا أظنه أتى لزيارتي. لقد قال لي بنفسه إنه تحجج بزيارتي ليجلب لك هذه النبتة الجميلة».

ـ لا تجادلني أبي.

تذمر والدها ولكنه تركها تلف ذراعها حول خصره لتسنده، ثم تقول لتشارلز: «لن أتأخر».

ـ خذي وقتك.

توقف والدها عن السير فجأة حالما خرجا من المطبخ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة لم تر ستيفي لها مثيلاً، فسألته: «ما الذي يفرحك؟».

رد عليها: «لا شيء».

ثم بدأ يقهقه بصوت منخفض: «أرى أن أمك محقة في هذا، أيضاً».

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنت وتشارلز.

ـ لا شيء بيننا يا أبي! نحن صديقان فحسب.

ـ ربما، ولكن هذه الصداقة ستتحول إلى حب في وقت قريب جداً.

صمّت ستيفي أذنيها حتى لا تسمع تعليقات والدها وقد أدركت أنه يستشهد بحلمه. عندما راح يحدثها عن ڤاليري وكولبي لم يزعجها الأمر إلى هذا الحد. ولكن الآن حان دورها، وهي متضايقة ومنزعجة جداً.

أكدت له قائلة: «لم يأتِ تشارلز إلى هنا لزيارتي ولا أظن أن إحضاره الأضاليا يعني شيئاً. فأنا متيقنة أنه كان ينوي أن يعطيك إيّاها، ولكنك كنت نائماً».

ـ كما تشائين يا أميرة.

أدركت أن لا فائدة ترجى من جدالهما، كما وأنها لا تريد أن تجعل تشارلز ينتظر طويلاً. وعلى أي حال، كانت تشك في أنه ينوي الذهاب قريباً. جلس والدها على حافة السرير، ونظراته تنم بوضوح عن فضوله فقال لها: «لقد أخبرتني أنك قد وقعت في حبه منذ زمن بعيد... إنها محقة، أليس كذلك؟».

قبّلت ستيفي جبينه وتجاهلت سؤاله: «أتريد أن أغطيك؟».

ـ يا إلهي، لا... أسرعي بالعودة إلى الشاب، فهو ينتظرك منذ سنوات طويلة.

ابتسم والدها ابتسامة عريضة وهو يضيف قائلاً: «يا إلهي، إن أمك على حق».

ثم سمعته يغمغم وهي تغادر الغرفة: «سامحيني يا غريس لأنني شككت بكلامك».

أخذت ستيفي ترتعش حالما خرجت من الغرفة. لقد لمّح لها والدها، إلى ما كانت تخشى سماعه، وترغب به في آن معاً.

فهو مؤمن تماماً بزواجها من تشارلز، كما هو متأكد مما ستؤول إليه قصة حب ڤاليري وكولبي.

ولم تكن ستيفي متيقنة لعلاقة شقيقتها الكبرى أكثر من تيقنها لعلاقتها هي مع تشارلز.

قال لها تشارلز عندما انضمت إليه في المطبخ: «تبدين وكأنك رأيت شبحاً».

رفعت عينيها إليه وقد ساءها أن يلاحظ اضطرابها. إنه على حق، فكلام والدها حول علاقتهما أثار خوفها، خاصة وأنه واثق تماماً من أن زواجهما أصبح وشيكاً.

ـ ما الأمر؟ هل والدك بخير؟

أومأت برأسها: «إنه على ما يرام، وهو يتحسن يوماً بعد يوم...».

ـ يسرني أن أراه يبتسم ثانيةً.

هزت ستيفي رأسها وراحت تحرك الصلصة التي كانت تغلي على نار خفيفة، حتى تبعد نظرها عن تشارلز.

ـ ما الخطب؟

سألها برقة، وقد مس اهتمامه بها شغاف قلبها. هذا هو الرجل الذي عرفته ووقعت في حبه منذ ثلاث سنوات، الرجل الذي لم تستطع أبداً أن

تنساه.

فلو كان الأمر يتعلق برجل آخر، لسخرت من كلام والدها، وأخبرت الزوج العتيد أن والدها يميل إلى لعب دور مدبر زيجات.

ولكنها لا تستطيع شيئاً، عندما يتعلق الأمر بتشارلز... إذ قد يخالها عادت إلى ألاعيبها القديمة.

أجابته وهي تصطنع ابتسامة براقة: «لا شيء، أنا لا أستطيع التوقف عن التفكير في حسن حظنا، لبقائه على قيد الحياة».

تأملها تشارلز بإمعان: «هل أنت متأكدة أن كل شيء على ما يرام؟».

ألقت عليه نظرة مطمئنة، وردت: «بالطبع».

ـ هل تحتاجون لشيء ما..

ـ لا، أبداً.

ابتسمت له، وتابعت قائلة: «لقد فعلت الكثير لأجلنا، نحن جميعاً مدينون لك... لقد كنت عظيماً».

ـ كلامك يوحي بأنني قديس. ولكن ثقي يا ستيفاني أن الكنيسة لن تكرسني أبداً قديساً... خاصة مع الأفكار التي تجول في هذه اللحظة في رأسي.

نهض عن كرسيه ووقف وراءها، ثم وضع يديه على كتفيها وشدها برفق إليه وأحاط خصرها بذراعيه وراح يشم رائحتها بعمق.

أغمضت ستيفي عينيها وقد غمرها طوفان من الأحاسيس الدافئة، وتركت نفسها تستمتع بكل لحظة.

إنه لمن السهل عليها أن تستدير وترتمي في أحضانه، وتذوب بين ذراعيه. فقد حلمت طويلاً بهذه اللحظة، ولكنها الآن وقد جاءت، فهي خائفة منها.

ثنت يديها على يديه المتشابكتين عند وسطها وقالت: «أنا.. الأزهار هي..».

ـ بادرة حسن نية.

أثارت كلماته حيرتها، وإذ أحس بارتباكها قال لها بصوت هامس: «دعينا نبدأ من جديد، لا أظنني فهمت ما تعنين».

ثم أدارها لتواجهه وقال: «مرحباً يا آنسة، أدعى تشارلز توماسيللي. وأعرف أنك ستيفاني بلومفيلد، وأنه لمن دواعي سروري أن أتعرف إليك».

مد لها يده فصافحته... لو لم تكن ملامحه جدية، لانفجرت بالضحك.

ـ قلت إن اسمك تشارلز؟ هل ينادونك تشارلي؟

ـ أبداً. هل ينادونك ستيفي؟

ردت وفي نيتها أن تغيظه: «فقط عندما كنت مجرد طفلة».

ـ علمت أنك عدت إلى البلدة مؤخراً، ولا أعتقد أن الفرصة سنحت لك لمشاهدة التغيرات التي حصلت في وادي البساتين. ما رأيك لو اصطحبتك في جولة في البلدة، لتشاهدي المعالم الجديدة؟

ترددت في الإجابة ثم سألت: «متى؟».

ـ ما من وقت أفضل من الآن.

ـ ولكننا، تعارفنا للتو.

ـ أرجو ألا يشكل ذلك عائقاً، فأنا أهل للثقة تماماً.

ـ إذاً، سأقبل دعوتك الكريمة.

ـ هل تريدين أن تجلبي معك سترة؟

هزت رأسها بالنفي.

مد يده لها، وشبك أصابعها بأصابعه وهو يقودها نحو باب المنزل الأمامي.

نزلا الدرج وهما يضحكان غير مبالين بشيء. فتح لها تشارلز باب السيارة وساعدها على الصعود... ومن دون مقدمات، دنا منها وقبّل

خدها، ثم عاد وتراجع إلى الخلف، وقد بدا مندهشاً من نفسه. رفعت ستيفي نظرها إليه وهي تظن أنها سترى في عينيه نظرة ندم، ولكنها لم ترَ سوى سعادته العامرة التي كانت تعكس مشاعرها، هي أيضاً.

***

سألتها نورا في اليوم التالي: «أين كنت ليلة أمس؟ لقد عدت إلى البيت بعد انتهاء الحفل ولم أجد لك أثراً».

فأجابتها ستيفي وهي تضع طبقة رقيقة من مربى الفريز الذي صنعته أختها، على قطعة من الكرواسان.

ـ خرجت من البيت لبعض الوقت.

لم تحاول الدخول في التفاصيل لأن والدها جالس إلى الطاولة معهما، يرتشف القهوة ويقرأ الصحيفة الصباحية. وقد خشيت أن يتوصل إلى استنتاجات خاطئة إذا عرف أنها خرجت بصحبة تشارلز.

لقد أمضيا ساعتين يتجولان بسيارته في المنطقة. عرّفها تشارلز على المحلات الجديدة، بما فيها مطاعم الوجبات السريعة ومتاجر الأزياء الفاخرة، ومجمع السينما الذي أنشىء مؤخراً والمؤلف من ست صالات عرض ومجمع سكني.

وترافقت هذه الجولة مع تعليقات متواصلة شملت آخر الأقاويل والشائعات.

لم تستمتع ستيفي بوقتها إلى هذا الحد منذ زمن بعيد. كان تشارلز مسلياً ومرحاً، وظهر أنه يبذل جهداً كبيراً كي لا يأتي على ذكر خلافاتهما الماضية.

كان الوقت متأخراً عندما عاد بها إلى البيت، ومع ذلك جلسا في السيارة يتبادلان الحديث لنصف ساعة، قبل أن تدخل ستيفي إلى البيت.

وتوقعت أن تبقى مستيقظة طيلة الليل وهي مستلقية على السرير تستعيد في رأسها الوقت الذي أمضته معه، إلا أنها خلدت إلى النوم على

الفور.

قال والدها وهو يرفع نظره عن الصحيفة التي كان يقرأها: «خرجت ستيفي مع تشارلز ورجعت إلى البيت في وقت متأخر».

راحت ستيفي تمرغ المربى بعصبية على الكرواسان.

ـ تشارلز توماسيللي؟

رددت نورا الاسم وكأنها لا تصدق أذنيها.

رد دافيد بانشراح: «بنتان و صبي؟».

سألته ستيفي مستفهمة: «ماذا؟».

فأجابها: «ستتزوجين تشارلز وتكوّنين خلال السنوات القليلة المقبلة أسرة جميلة».

عوضاً عن مجادلة أبيها أو الإصغاء إلى المزيد من هذا الكلام، نظرت إلى أختها وقالت: «أنا مضطرة لشراء بعض الحاجات من البلدة وسأذهب بعدها إلى بورتلاند. هل تريدان شيئاً؟».

سألها والدها: «بورتلاند؟ لماذا؟».

ـ أظن أن الوقت قد حان لأتقدم بطلب لشهادة الدكتوراه ولوظيفة تدريس في الجامعة. فأنا مؤهلة لذلك، كما تعرف.

ـ ولكن لا يمكن أن تشغلي بالك الآن بالبحث عن عمل.

فغمغمت قائلة: «أعلم أن البلد يعاني من الركود، ولكن...».

رد متذمراً: «أنا لا أتحدث عن الوضع الاقتصادي، بل لأنك ستتزوجين قبل نهاية الصيف. فلا تبدأي بتعقيد الأمور لمجرد حصولك على عمل».

تصاعدت الدماء إلى وجنتي ستيفي... يبدو متأكداً من زواجها من تشارلز، وهذا ما أثار غيظها.

ـ أرجوك يا أبي أن تصغي إليّ...

ـ من غير المنطقي أن تباشري العمل لتطلبي بعدها إجازة لقضاء شهر

العسل.

لم تكن ستيفي قادرة على مناقشته أكثر من ذلك... فهذا يكفي، ولكنها لم تعرف ماذا تقول له. كانت تعي أن والدها يزعم أيضاً أن الأمور ستسير على خير ما يرام بين ڤاليري وكولبي. ولكن بعد أن رأت شحوب وجه شقيقتها الكبرى هذا الصباح، فقدت ثقتها بكلام والدها. وهذا لا يعني أنها حقاً صدقته في وقت من الأوقات.

ـ أنا لا أتوقع القيام باتصالات كثيرة، لأن معظم المكاتب تقفل يوم السبت، ولكني أريد أن أراجع بعض الأمور في المكتبة وعلى أي حال، قد يكون من الصعب الحصول على وظيفة في الجامعة في الوقت الحاضر. ولكني أود أن أباشر العمل على أطروحتي قريباً.

ـ بكلام آخر، ستذهبين إلى بورتلاند في مطلق الأحوال؟

ـ بالضبط.

اقترح عليها: «من الأفضل إذن أن تشتري حاجياتك بعد إنهاء أعمالك.. ما رأيك لو تجربين فساتين الأعراس؟ فأنت وأختك ستحتاجان قريباً إلى واحد منها».

كانت نورا تراقب ستيفي باهتمام ولكنها لم تنبس ببنت شفة إلا بعد خروج والدها من المطبخ: «ما الذي ستفعلينه؟».

ردت ستيفي وهي متفهمة تماماً لقلق شقيقتها: «ليس لدي أدنى فكرة. إذا تابع أبي إصراره على...».

قاطعتها نورا بنفاد صبر: «أنا لا أتكلم عن أبي، بل عن ڤاليري».

أخمد عطفها على شقيقتها غيظها من والدها: «وماذا يسعنا أن نفعل؟».

بدا القلق على وجه نورا: «لا أعرف، ولكن لا يمكننا أن ندعها تغادر البلدة على هذا النحو. عندما نزلت من غرفتها في الصباح الباكر، أخبرتها بأن كولبي يواعد شيري واترمان».

ـ وكيف تلقت ڤاليري الخبر؟

ـ لا أعرف، من الصعب أحياناً قراءة أفكارها. ولكن خيل إلي وكأنها على علم بالأمر.

استطردت نورا وهي عابسة: «أتمنى أن تتكلمي معها... إنها في غرفتها الآن يا ستيفي. وأنا حقاً قلقة عليها. لقد اعترفت لي أنها مغرمة بكولبي، ولكنها تبدو مذعنة لفكرة خسارته».

كانت ستيفي تتفهم ما تشعر به شقيقتها الكبرى.

تابعت نورا: «وما زاد الطين بلة هو أن أبي سمعني أتحدث مع ڤاليري، فأراد أن يعرف ما الموضوع».

ـ وماذا قلتما له؟

ـ لم تسنح لي الفرصة لأقول شيئاً، لأن أبي تولى دفة الحديث. فهو يرى، مثلي، بأنه من الأفضل أن تذهب ڤاليري وتتناقش بصراحة مع كولبي. ولكنني لا أعتقد أنها ستفعل.

سألتها ستيفي: «أين ڤاليري الآن؟».

نظرت نورا بعيداً وأجابت: «فوق، في غرفتها».

ـ ماذا تفعل هناك؟

ـ لا أعرف. ولكن يجب أن تذهبي إليها، ڤاليري بحاجة إلينا، إلا أنها لم تعتد طلب المساعدة من أحد.

لم توافقها ستيفي الرأي. فقد كانت شقيقتها تحصل على المشورة والنصح من كل حدب وصوب، فيما كل ما تحتاج إليه هو الإصغاء إلى قلبها.

سألتها نورا بفضول واضح: «ما هذا الحديث عنك وعن تشارلز؟ لم أعرف حتى أنك معجبة به».

من الطبيعي أن تفترض شقيقتها ذلك في ضوء المواجهة التي حصلت بينهما حول المقالة التي نشرت في صحيفته.

ـ نحن مجرد صديقان.

صعدت ستيفي إلى غرفتها قبل أن تطرح نورا المزيد من الأسئلة. كانت تفكر في التحدث إلى ڤاليري وإخبارها بأن البعد لا يشفي جروح القلب.

ولكن ڤاليري ذكية بما يكفي لتتخذ القرارات بنفسها، كما وأن ستيفي لم تشعر بأنها مؤهلة لإسداء النصح.

ارتدت بذلة من اللون الأزرق الفاتح للذهاب إلى بورتلاند، ولو أن ڤاليري موجودة في المنزل لأعجبتها جداً. فقد اختفت شقيقتها بصورة غامضة من دون أن تفصح عن وجهتها.

كانت ستيفي في طريقها للخروج من الباب عندما أوقفها والدها قائلاً: «هلا جلست معي على الشرفة لبعض الوقت، يا أميرة؟».

ـ طبعاً.

جلست ستيفي إلى جواره، على كرسي أمها القصب. ثم راحت تنظر إلى البساتين التي تغمرها أشعة الشمس.

ـ هل أنت جادة بالنسبة إلى البحث عن وظيفة؟

ـ نعم، فلا يمكنني البقاء في المنزل من دون عمل، إنها مضيعة كبيرة لعلمي وثقافتي.

ـ تريثي قليلاً يا أميرة.

بدأ الحديث عن الزواج، يثير استياءها: «ولكن، يا أبي..».

ـ لأسبوعين فقط. لم يمضِ على عودتك إلى المنزل وقت طويل.. وأنا لا أريدك أن تنتقلي بعيداً من هنا، وكل ما أطلبه منك هو أن تؤجلي الأمر لبعض الوقت.

ـ لن أنتقل من هنا على الفور..

ترددت قبل أن تكمل كلامها، إذ ليس باستطاعتها أن ترفض له طلباً وهو يعرف ذلك. فوعدته على مضض: «أسبوعان فقط. سنحاول خلالهما

أن نعوض ما فاتنا، ثم أبدأ بالبحث عن شقة».

ـ هل سيأتي تشارلز الليلة على العشاء؟

ـ كلا.

لقد دعته إلى العشاء، ولكنه مرتبط باجتماع عمل في آخر النهار وقد لا ينتهي في الوقت المناسب.

ـ سيفوّت على نفسه وجبة الطعام الإيطالية.

ـ سنعد له وجبة أخرى.

ـ يجب أن تعدّي له طبقاً وتأخذيه معك إلى البلدة. فنادراً ما تسنح الفرصة لعازب مثل تشارلز بالاستمتاع بعشاء منزلي.

ـ أعتقد أنه يهتم بنفسه جيداً.

ردت ستيفي وهي تداري ابتسامتها.

ـ إنه شاب رائع.

ـ نعم، أنا أعلم ذلك وأظنه من أكثر الصحفيين موهبة، ويدهشني أنه ما زال يعمل في وادي البساتين. كنت أعتقد أن إحدى صحف المدن الكبرى قد خطفته من هنا منذ أمد طويل.

ـ لقد قاموا بمحاولات عدة، ولكن تشارلز يحب العيش هنا. لقد رفض عدداً كبيراً من عروض العمل.

ـ كيف تعرف ذلك؟

لم تندهش ستيفي لأنه تلقى عروض عمل أخرى، بل ذهلت لمعرفة والدها بخفايا هذه الأمور. ثم تذكرت أنه وتشارلز عملا معاً على موضوع العمال في المزارع والبساتين.

رد عليها قائلاً: «أنا أعرف تشارلز جيداً، وقد أصبحنا في السنوات الأخيرة نعم الصديقين».

وضعت ستيفي ساقاً فوق ساق وقالت: «نسيت أنكما أعددتما تلك المقالة معاً».

هز والدها رأسه:

- لقد كتب تشارلز كل كلمة من القصة تقريباً، وكل ما فعلته أنا هو تزويده ببعض التفاصيل وإضافة بعض الملاحظات.

- إنه ممتن لك كثيراً.

لزم والدها الصمت لبضع لحظات وقد استغرق في تأملاته، وتساءلت ستيفي عما إذا كان قلقاً على ڤاليري. وإذ همت بالتحدث حول الموضوع قال والدها:

- سيصبح تشارلز صهراً عظيماً.

أغمضت ستيفي عينيها في محاولة لكبح نفاد صبرها وقالت متذمرة:

- أرجوك يا أبي كف عن ذلك.

- عن ماذا؟

- الحديث عن زواجي من تشارلز.

- ولمَ لا؟

سألها ذلك بنبرة تنم عن الاستياء، ثم أضاف قائلاً:

- إنه يحبك منذ سنوات، غير أني لم ألاحظ شيئاً. فبعد رحيلك بفترة قصيرة بدأ يزورنا ويسأل عنك. غير أنه.. كان متكتماً جداً بحيث لم أدرك غايته حتى رأيتكما معاً الليلة الماضية.

- ولكن..

فقاطعها والدها قائلاً وهو يهز برأسه: «لا تملكين أي دليل، أليس كذلك؟ وأنا لا ألومك أبداً!».

وبدا من الطريقة التي تكلم بها والدها أن تشارلز أمضى السنوات الثلاث الماضية وهو يستقصي أخبارها، وكانت ستيفي تعلم أن هذا مستحيل، فهو سبب رحيلها لأنه أذلها، وسخر منها.

- وعندما ذكرت أمك أنك ستتزوجين تشارلز..

شعرت ستيفي بالدموع تترقرق في عينيها: «أرجوك يا أبي، أنا لن

أتزوج تشارلز».

حدق إليها والقلق بادٍ في عينيه: «ما الخطب يا أميرة؟ أنت تحبينه، أليس كذلك؟».

- أحببته.. منذ وقت طويل، عندما كنت صغيرة وساذجة.

ولكن والدها لم يعرف أبداً كم كانت ساذجة وحمقاء.

فعلى الرغم من سوء معاملة تشارلز لها يوم كانت في منزله، مستلقية في المغطس، لم تيأس ووضعت خطة محكمة للإيقاع به نهائياً.

تركت له رسالة في مكتبه تخبره فيها أن والدها يريد مقابلته على الفور. انتظرت ستيفي وصول تشارلز في الاسطبل، بعد أن فرشت الحظيرة الأمامية بالعشب النضر...

لم يكن في المنزل أحد سواها، فألصقت ورقة صغيرة على الباب الأمامي تطلب فيها من تشارلز أن يقصد الأسطبل.

وصل تشارلز في الموعد المحدد. تردد قليلاً عندما وجدها لوحدها، ثم طلب منها أن يتكلم مع والدها وقد حرص على البقاء بعيداً عنها. ولعل ذلك مرده إلى الرفش الذي كانت تحمله.

خططت ستيفي لهذا اللقاء بدقة. فارتدت سروال جينز ضيقاً وقميصاً مفتوح الأزرار عند الصدر ومعقوداً على خصرها.

إنها تذكر جيداً كيف ردد تشارلز مراراً وتكراراً أنه يريد التحدث مع والدها وتسوية الوضع بينه وبين ستيفي.

وفيما كانت تثرثر معه، وتخبره أنها غير متأكدة من وجود والدها في المنزل، وضعت الرفش جانباً وأخذت تصعد السلم إلى العلية. وفي اللحظة الملائمة تماماً، فقدت توازنها فترنحت لثانية، وسقطت بين ذراعي تشارلز.

ولكن تحت وقع ثقلها عليه، سقط كلاهما على الأرضية المفروشة بالعشب الغض. وللحظة وجيزة، لم ينبس أي منهما بكلمة.

ثم قال لها بنبرة غاضبة:

ـ هل أنت بخير؟.

لم تشعر ستيفي يوماً بأنها أفضل حالاً.. فللمرة الأولى تجد نفسها بين ذراعي تشارلز وهو يمسك بها وكأنه لا ينوي إفلاتها أبداً.

حدقت ستيفي إليه وهزت رأسها ببطء، بينما كانت نظراته تجول على مفاتن جسمها وفجأة أمسك رأسها بيديه وعانقها برغبة وشوق كما لم يعانقها رجل من قبل. في تلك اللحظة تشوشت أفكار ستيفي، ولم تعد تعي لشيء في العالم سوى لوجودها بين ذراعي تشارلز.

ولكنه ما لبث أن ابتعد عنها، بينما كانت عيناها تتوسلان إليه أن يغدق عليها المزيد من الحنان والحب ويحرك فيها تلك الأحاسيس الغريبة التي لم تذق طعمها من قبل.

لن تنسى ستيفي أبداً طريقة ابتعاده عنها، ووقوفه على قدميه من دون جهد، وهو يتنفس بصعوبة.

في البداية لم يقل شيئاً، وأدركت ستيفي أن عليها أن تكسر جدار الصمت بينهما، فرفعت نظرها إليه وأفضت له بمكنونات قلبها ومدى حبها له.

فحدق بها تشارلز بصمت لبضع ثوان، ثم انفجر ضاحكاً وكأنها روت له أفضل نكتة سمعها في حياته.

ثم قال لها متهكماً، أنها تماماً ما يحتاج إليه.. مراهقة ولهانة تلاحقه من مكان إلى مكان من دون كلل أو ملل. كم مرة عليه أن يخبرها أنه لا يهتم لها؟ فلو أراد أن يرتبط بأحد لبحث عن امرأة بكل معنى الكلمة، وليس عن طفلة ينقصها النضوج مثلها.

وعلى الرغم من أنه لم يتوقف عن الكلام هرعت ستيفي إلى البيت، والدموع تنهمر على خديها. وبقي صدى ضحكته يلاحقها ويسخر منها، ويدمي قلبها.

ـ لم يكف تشارلز عن حبك طوال هذه السنوات.

أعادها كلام والدها إلى الواقع، فشعرت بالارتياح لتركها الماضي المؤلم.

همست والألم يعتصر قلبها:

ـ ولكنه لم يحبني أبداً.

فأجابها والدها قائلاً:

ـ أظنك مخطئة يا أميرتي الحلوة.

* * *

٦ ـ مشاعر متأججة

ـ اسمعني يا أبي.

نهضت ستيفي فجأة وأشاحت برأسها بعيداً خشية أن يرى والدها الدموع التي ترقرقت في عينيها.

ـ مهما حدث يا أبي، أرجوك ألا تقول شيئاً لتشارلز.

ـ إنه واقع في حبك.

فأجابته قائلة: «ما يقلقني هي مسألة الزواج».

ـ أهذا ما يثير استياءك؟

ـ نعم يا أبي.

سألها بلطف: «أنت لم تفهمي، صح؟».

ـ أنت من لم يفهم يا أبي.

رد عليها والدها برقة: «أرجوك يا أميرتي... حاولي أن تدرسي الأمور بتمعن».

شعرت بحاجة ملحة للانصراف قبل أن تنفجر في عاصفة من البكاء. فصعدت إلى سيارتها وراحت تقود على غير هدى.

كانت ستيفي قد تمالكت نفسها عند وصولها إلى بلدة وادي البساتين. فمرت على المصبغة لتأخذ ثيابها، وتوقفت عند مكتبة البلدة وأودعت في البريد بطاقة تهنئة بعيد ميلاد ماريو الصغير، ثم تابعت طريقها إلى بورتلاند. كان شارع ماين مزدحماً، فلم تجد مكاناً تركن فيه سيارتها.

بقيت جالسة عشر دقائق في السيارة وهي تفكر ملياً في حلم والدها. أينبغي عليها أن تحذر تشارلز بنفسها من حلم والدها الجنوني، وآماله في تزويجهما؟

كانت تقلب المسألة في ذهنها، عندما شاهدته وهو يتكلم إلى فتاة في مكتب الاستقبال. رقص قلبها فرحاً لمجرد رؤيته، إذ بدا جذاباً للغاية وقد خلع سترة بذته ولف كمي قميصه الأبيض حتى منتصف ذراعيه. راقبته لبضع لحظات وقلبها يخفق بشدة بين ضلوعها.

للوهلة الأولى، ظنت ستيفي أن تشارلز يتحدث إلى نورا، ولكنها سرعان ما أدركت أن ذلك مستحيل. لاحظت ستيفي أن الفتاة الشقراء الجميلة تحدق إلى تشارلز بعينين متسعتين مليئتين بالإعجاب. فانتابها إحساس قوي بالخوف والغيرة. لا شك أن هذه الشقراء هي ويندي المتدرجة التي ذكرها تشارلز. ولم تشك ستيفي للحظة أنها قد تكون واقعة في حبه، ولا يحق لستيفي أن تلومها على ذلك، فذات مرة، لعبت هي دور الفتاة الشغوفة، ولا تزال تلعبه حتى الآن، رغم جهودها المضنية للتخلص منه.

كان تشارلز يتكلم مع الفتاة المتدرجة، وقد أرخى يده على ظهر الكرسي الجالسة عليه، ثم أحنى رأسه ليراجعا معاً شيئاً ما، فضحكت الشقراء لكلامه بينما ابتسم لها هو ابتسامة رقيقة، والسعادة بادية على وجهها.

لم تعد ستيفي قادرة على رؤية المزيد. فأحست وكأنها عادت بالزمن ثلاث سنوات لتشاهد تصرفاتها الصبيانية. خرجت من سيارتها على عجلة وأشاحت بنظرها بعيداً عن مكاتب الصحيفة، ثم أقفلت باب السيارة وهمت بالابتعاد... وإذا بتشارلز أمامها على الرصيف.

ـ مرحباً، يا ستيفاني.

دلّت نبرة صوته على دهشته لرؤيتها، وسروره في آن معاً.

ـ مرحباً.

ردت عليه بارتباك وهي تشعر بالذنب، إذ لـم تشأ فعلاً أن تتجسس عليه.

سألها وهو يرمق زيها بإعجاب: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

ـ أنا... كنت أفكر بالتجول في بورتلاند والمرور بالجامعة، فأنا أنوي أن أستأجر شقة في المدينة، ولكن أبي..

ترددت في إنهاء كلامها.

ابتسم تشارلز وهو يقول: «ولكن والدك ليس مسروراً لهذه الفكرة».

ـ بالضبط. لقد وعدته أن أتريث أسبوعين آخرين.

ـ لماذا أسبوعين؟

قال ذلك متعجباً، فارتعدت فرائصها لبضع ثوانٍ وهي تخشى أن يتكهن تشارلز بما يجري، وتساءلت ما إذا كان والدها قد أخبره عن حلمه.

ـ يجب أن تسأله.

ـ ألديك بعض الوقت؟ أود أن أعرفك على ويندي. إنها المتدرجة التي أخبرتك عنها، وبارت هنا أيضاً. أظنك تذكرين بارت، أليس كذلك؟

عضت ستيفي على شفتها، وهي تشعر بالتردد.. فآخر مرة دخلت فيها مكاتب الصحيفة كانت عازمة على رفع دعوى قضائية.

ـ سأضيف إلى ذلك دعوة إلى الغداء... لديّ موعد عند الواحدة، ولا يزال أمامنا متسع من الوقت.

تسمرت ستيفي مكانها والحيرة بادية على وجهها... وإذا بتشارلز يقبض بشدة على مرفقها ويقودها إلى الداخل... فشعرت بموجة من الارتياح. فمع كل شيء، قد أتيحت لها الفرصة لقضاء بعض الوقت معه... وهي أغلى من أن ترفضها.

بدا الجميع مسروراً لرؤيتها. فتساءلت ما إذا كان تشارلز قد قال لهم شيئاً لينقذ سمعتها.

رحب اثنين من المراسلين بعودتها إلى وادي البساتين. بينما استفهم الصحفي بارت عن صحة والدها. حتى ويندي أبدت إعجابها بها، مما زاد من شعور ستيفي بالذنب.

قال تشارلز فيما كانا يغادران المكتب: «سأعود عند الواحدة».

ـ ولكن..

توقف بارت عن الكلام فجأة عندما قاطعه تشارلز بنظرة حادة.

ووعده تشارلز قائلاً: «سأعود قبل الموعد».

ثم استدار نحو ستيفي وسألها وهو يبتسم: «ماذا ترغبين بأن تأكلي؟».

ـ لا يهم!

ـ يقدم «مطعم هاف مون» سندويشات لذيذة، فما رأيك بذلك؟

ـ عظيم.

عندما رحلت ستيفي إلى إيطاليا، كان الهاف مون، الكائن في آخر الشارع، مجرد مقهى صغير، ولكنه الآن تحول إلى مطعم حديث. اختارت ستيفي طاولة بينما كان تشارلز يحضر طلباتهما. حياها عدد من معارفها القدماء وسألوها عن والدها. وفي غضون دقائق قليلة، كانت تضحك وتمازح من حولها.

عندما عاد تشارلز حاملاً سندويشات الحبش مع البندورة والقهوة، ابتسمت له بغبطة، وهي عازمة على إبعاد الأفكار المزعجة التي حملتها معها إلى البلدة، عن ذهنها.

سألها تشارلز وهو يمسك طعامه بكلتا يديه.

ـ كيف حال والدك هذا الصباح؟

ـ مشاكس إلى الأبد... ومكابر وعنيد أيضاً.

وأحياناً غير منطقي...

وحتى إن قررت في النهاية تحذير تشارلز، فالوقت ليس مناسباً الآن،

فهما يجلسان باسترخاء، والحياة تبدو لهما وردية.

مرت الساعة بسرعة، وقالت لنفسها:

السعادة الصافية لا تدوم أبداً. مع أنها تمنت العكس، وشاطرها تشارلز رغبتها في أن تدوم تلك اللحظات إلى الأبد.

رافقته ستيفي إلى مكان عمله، وقالت له وهما يقفان على الرصيف أمام مكتبه: «شكراً على دعوتك لي للغداء».

وعدها تشارلز بأن يتصل بها فيما كان بارت يخرج من المكتب وهو ينظر إلى ساعته بنفاد صبر، فقال له تشارلز: «حسناً، حسناً».

ثم عاد والتفت إلى ستيفي ليقول: «في أي وقت، غداً».

***

كانت ڤاليري راحلة.

حاولت ستيفي أن تتكلم معها، وتقنعها بأن الهروب من الحب لا يجدي نفعاً، لأنه سيلحق بها أينما رحلت. استمعت إليها شقيقتها وهي مستغرقة في أفكارها ثم حزمت أمتعتها وحقائبها بهدوء وصمت.

صباح الأحد، جاء كولبي لزيارتهم فيما كانت ڤاليري على وشك المغادرة. ولا تذكر ستيفي أنها شعرت يوماً بمثل هذه الحماسة، إذ بدا لها وكأن كل ما قرأته عن قوة الحب، وآمنت به في سرها، كان صحيحاً. لأن كولبي جاء ليبرهن ذلك، ويعلن حبه ويخلب عقل ڤاليري.

إلا إنها ما لبثت أن أدركت أن كولبي لم يأت من أجل ڤاليري، كما وأنه لم يكن على علم بسفرها بعد ظهر هذا اليوم. وعندما أبلغوه الخبر، تقبله بهدوء وكأنه محتم... ولم يظهر أي نية بردعها، لا بل بدا مرتاحاً لرحيلها.

لحظة الوداع، ظنت ستيفي أنها قد تنفجر بالبكاء، إذ أرادت أن تؤمن بكل جوارحها بقوة الحب وقدرته على تحطيم الحواجز وتخطي العوائق.

عانقت ڤاليري الجميع وسارت شامخة الرأس إلى سيارة الأجرة.

وقبل الانطلاق، التفتت ونظرت إلى كولبي.

لن تنسى ستيفي أبداً الحنان الذي شاهدته في عيني شقيقتها، وتلك النظرة المفعمة بالحب، بعد أن توارت السيارة عن الأنظار.

التفتت ستيفي إلى كولبي، الذي وقف يتعقب بنظراته السيارة التي أقلت شقيقتها، فبذلت قصارى جهدها حتى تكبح رغبتها بتعنيفه. ولم يمنعها عن مهاجمته سوى الحزن في عينيه، فتحول غضبها إلى يأس خاصة وهي تسمعه يقول هامساً: «لقد رحلت».

ـ لكنها ستعود.

رد والدها بثقة تامة أغاظت ستيفي.

أجابت ستيفي بدورها وصوتها يرتعش: «لا، لن تعود. ليس قبل وقت طويل».

ولم تستطع الامتناع عن المجاهرة ببعض الحقائق القاسية. وبعد أن أصبحت عاجزة عن مواجهة كولبي ووالدها، اندفعت إلى داخل البيت. فلحقت بها نورا وقد تورّمت عيناها من شدة البكاء.

قالت نورا والدموع تنهمر على خديها: «ستتزوج راودي كاسيدي... والأسوأ أنها لا تحبه».

سألتها ستيفي بهدوء: «ما الذي يدعوك إلى الاعتقاد بأن ڤاليري ستقدم على عمل أخرق كهذا؟ قد تكون ڤاليري حزينة لأنها خسرت كولبي وينستون، ولكنها أكثر تعقلاً من أن تقدم على زواج مماثل».

ردت عليها نورا من دون أن تتوقف عن البكاء: «راودي مغرم. لقد كان يتصل بها كل يوم تقريباً ويرسل لها الأزهار... وڤاليري في الوقت الحاضر، ضعيفة وعرضة للإغواء. وأنا واثقة أنها سترتكب هذه الغلطة الفظيعة».

فطمأنت ستيفي شقيقتها قائلة: «لن تقدم ڤال على أي عمل غبي».

لا يمكن أن تتزوج ڤاليري رئيسها كردة فعل على ما حدث.

ستيفي واثقة من ذلك. لقد عرفت في أعماقها ما ستفعله شقيقتها في السنوات الثلاث القادمة. فهي ستحاول أن تجد ملاذاً في عملها، حتى لا يتسنى لها الوقت عندها للندم والتحسر على ما مضى، أو استرجاع ذكريات الماضي الأليم.

بعد مضي ساعة، حملت إلى والدها كوباً من الشاي المثلج، بعد أن رفض بعناد أن يغادر الشرفة. وبقي جالساً على كرسيه الهزاز وهو ينظر إلى الطريق بلهفة ويردد: «كلاهما سيعود».

لم تشأ ستيفي أن تخيب أمله. ومع حلول الليل، سيجد نفسه مرغماً على مواجهة الواقع من دون أي تدخل منها.

غادر كولبي المنزل بعد عشر دقائق من رحيل ڤاليري. ولم يكن مظهره يدل على أنه قد يقصد أي مكان غير منزله.

قال والدها بكل ثقة: «كوني على ثقة بأن ڤاليري وكولبي سيتزوجان قبل نهاية شهر حزيران».

ـ أبي...

ـ وأنت وتشارلز ستلحقان بهما في غضون أسابيع قليلة. فبناتي الثلاث سيتزوجن، إنني واثق من هذا كل الثقة.

ابتلعت ستيفي كلماتها المعارضة، رغم أنها كادت تختنقها.

سرجت المهر «برنسيس» وهي تشعر بحاجة ملحة لركوب الخيل، علها تشفى من الإحباط الذي تشعر به.

عرفت أنه من الأفضل لها ألا تجرب حظها مع فيوري ثانيةً. ولكن حتى الفرس التي لطالما كانت هادئة بطبعها، بدت وكأنها أحست بمزاج ستيفي، فانطلقت تسابق الريح عبر الأراضي الوعرة حتى وصلت إلى المنحدر.

ترجلت ستيفي عن ظهر الفرس وهي ممسكة باللجام، ثم جلست على الصخرة ذاتها التي جلست عليها قبلاً. وسرقها الوقت فيما كانت تنظر إلى

الوادي الممتد أمامها وتفكر بڤاليري وكولبي، وتسترجع في ذهنها علاقتها بتشارلز، وعنادها الذي قضى على الفرص كلها التي سنحت لهما منذ ثلاث سنوات. إلا أنها تشعر ببداية جديدة مع تشارلز، بينما ڤاليري تذوق الأمرّين.

عادت ستيفي أدراجها لتجد تشارلز واقفاً عند باب الأسطبل، مبتسماً: «أظنني سمعت صوتاً هنا».

ـ تشارلز.

ما كان يجب أن تدهش لرؤيته، خاصة وأنه أخبرها بأنه سيبقى على اتصال بها.

ـ قال والدك إنك ذهبت لركوب الخيل، ولكنه كان واثقاً بأنك ستعودين إلى البيت قريباً.

ـ هل انتظرت طويلاً؟

ـ ليس تماماً. كنت أتحدث مع والدك.

ـ ألا يزال جالساً على الشرفة؟

ـ لم يحرك ساكناً منذ وصولي هنا.

أشاحت بوجهها وهي تقول: «هذا ما كنت أخشاه. يعتقد أن ڤاليري ستعود إذا بقي جالساً على الشرفة».

تجهم وجه تشارلز وسأل: «هل من مشكلة؟».

فأجابت بسرعة: «لا».

ولكنها خشيت أن تكون قد تسرّعت، لأن عيني تشارلز ضاقتا، وظهر عليه الارتياب: «أعني لا شيء يدعو للقلق. يأمل أبي أن يتصالح كولبي وڤال، وهذا هو سبب عناده. ولكنه سيجد نفسه مرغماً على مواجهة الواقع مع حلول موعد العشاء».

تعثرت ستيفي بحزمة من العشب اليابس، وسقطت على وجهها. ولكن قبل أن تفقد توازنها كلياً، أمسكها تشارلز من خصرها، والتف على

نفسه حتى يتلقى جسمه الصدمة عندما يقعان أرضاً.

وها هو التاريخ يعيد نفسه، إذ وجدت ستيفي نفسها ممددة فوقه، وقلبها يخفق بشدة. . . غير أنها، هذه المرة، لم تصطنع الظروف، أو تدر دفة الأمور على هواها.

في تلك اللحظة، استعرت نيران المشاعر داخلها، فأسندت ذراعيها عليه، وهي تستعد للنهوض بسرعة والابتعاد عنه، إلا أنه أمسك بها وسمرها مكانها.

قال وهو يحدق في عينيها: «التاريخ يعيد نفسه».

ـ أنا. .

قطعت كلامها فجأة وأومأت برأسها.

ـ أتذكرين ما حدث ذلك اليوم؟

أومأت برأسها مرة أخرى، وهي عاجزة عن الكلام.

ـ هل تذكرين كيف تعانقنا؟

لم تستطع أن تنظر إليه، حتى لا يقرأ الجواب في عينيها. فتوسلت إليه بصوت واهن وعيناها مطبقتان بشدة: «دعني أذهب».

ـ ليس بعد.

حاولت الإفلات منه ولكنه ثبّتها بشدة لبعض الوقت قبل أن يفلتها تدريجياً: «دعينا نتذكر ما حصل حينها».

صرخت به: «لا».

هبت واقفة على قدميها حالما تحررت من بين ذراعيه، ولم تلاحظ أن كاحلها قد التوى. ولكن عندما وضعت ثقلها على قدمها اليسرى أحست بألم حاد.

فتأوهت وهي تستند إلى باب الحظيرة.

نهض تشارلز على الفور، وأحاط وسطها بذراعه وهو يقول: «هل تأذيت؟».

كذبت عليه: «لا داعي للقلق. . . إنه مجرد التواء بسيط في الكاحل».

ومن دون أن يتفوه بكلمة أخرى، رفعها تشارلز بين ذراعيه.

فقالت له وقد ثار غضبها: «أرجوك يا تشارلز، إنني بخير، إنه مجرد التواء بسيط. . . ولا داعي لهذا».

لم يرد عليها، وخرج من الاسطبل وهو يحملها.

سألته: «إلى أين تأخذني؟».

ـ إلى المطبخ. يجب أن تضعي ثلجاً على كاحلك فوراً.

ـ ولكني لا أؤمن بأساليب رجال الكهف.

كان يلهث عندما وصل بها إلى باب المنزل الخلفي، الأمر الذي أثار استياء ستيفي. فقالت له بنبرة آمرة: «أنزلني فوراً».

ـ أمهليني دقيقة.

فتح الباب بصعوبة ووضعها على الكرسي بفظاظة وكأنها كيس من الطحين. ثم فتح باب الثلاجة وأخرج طبقاً من الثلج.

أرخت قدمها المصابة وهمت بخلع حذائها ولكنه تدخل قائلاً: «دعيني أهتم بالأمر».

ـ أنت تتصرف بسخافة يا تشارلز.

لم يرد عليها ولكنه نزع الحذاء والجوارب باحتراس. كانت أصابعه رقيقة وهو يتفحص كاحلها. . . فشعرت بحرارة غريبة وهو يلمسها على هذا النحو.

حاولت أن تجادله: «قلت لك إنه لم يعد يؤلمني. ربما تسرعت في النهوض أو زلّت قدمي، ولكنني لا أشعر بألم».

ـ حاولي النهوض.

فعلت ذلك بحذر. فأحاط خصرها بذراعه فيما كانت تضع ثقلها باحتراس على قدمها، وقالت له وهي تشعر بالانتصار والغباء في آن معاً:

«انظر.. إنني بخير».

ـ حاولي أن تمشي.

أحست ببرودة الأرض على قدمها العارية. خطت الخطوة الأولى بكل احتراس، وهي تعض على شفتها، إلا أنها لم تشعر بأي ألم فقالت: «أرأيت؟ إنني بخير».

وراحت تتجول في المطبخ لتبرهن له ذلك.

ـ هذا جيد.

أعاد تشارلز طبق الثلج إلى الثلاجة وقد بدا العبوس على وجهه.

حاولت أن تغيظه وهي ترتدي الجوارب وتنتعل الحذاء: «هل خيبت ظنك؟».

ابتسم لها وملامحه تدل على مدى رغبته في ضمها بين ذراعيه: «لقد سمعت عن طرق مبتكرة تستخدمها النساء ليتجنبن عناق الرجل، ولكن..».

وتوقف عن الكلام بينما كان يجلس قبالتها، فلامست ركبتاه ركبتيها.

أغمضت ستيفي عينيها عندما أرخى يديه على كتفيها، وتقطعت أنفاسه وهو يهمس باسمها.

ـ ستيفاني.

كانت ستيفي خائفة من عناقه ومن تجاوبها معه، ولكنها شعرت بنيران تستعر داخلها. ولا بد أنه أحس بذلك لأن عناقه الرقيق تحول إلى الامتلاك. ووضعت يديها على صدره، وتمتعت بملمس عضلاته فيما كانت تستسلم تماماً لعناقه.

انسلخ عنها فجأة، وهو يلهث. ففتحت ستيفي عينيها وتشابكت نظراتهما لبعض الوقت وقد لفهما الصمت المحدق.

مد تشارلز ذراعيه وأمسك بها من وسطها ورفعها عن كرسيها ليضعها بأمان على حضنه. فشعرت بأنها تذوب بين ذراعيه وتتخلى عن آخر ما تبقى

عندها من مقاومة.

همس لها: «أريد أن أتحدث عما حصل».

فهمت ما يرمي إليه. ولكن حادثة الاسطبل كانت أكثر إيلاماً من أن تعود إليها.

ـ يجب أن تتوضح الأمور بيننا.

ـ لا.

عارضته لتصرف نظره عن هذه المسألة.

جاء صوته أجش عندما قال: «ستيف، يجب أن نصفّي الماضي قبل أن نتكلم عن المستقبل».

ـ لقد تقابلنا للتو، هل تذكر؟

كان هو من اقترح بأن يبدأا من جديد. ولا يمكنه أن يدفن الماضي ويطالب في الوقت عينه بإحراق جثته.

ـ أصغي إلي فقط..

توسلت إليه قائلة: «لم يحن الوقت لذلك بعد».

وهي تعلم في قرارة نفسها أن الوقت قد لا يحين أبداً. فقلبها كان يلح عليها بأن تنبذ فكرة إعادة أحياء حادثة آلمتها للغاية.

داعب خصلات شعرها بأصابعه ثم قال لها: «قريباً جداً».

وافقته الرأي على مضض: «ربما».

اخترق صوت ضحكة مجلجلة خلوتهما، وأدركت على الفور أن الصوت آتٍ من جهة الشرفة.

فسألها تشارلز: «هل هو دافيد من يضحك؟».

هزت ستيفي كتفيها: «من الأفضل أن أرى ما يجري».

أومأ برأسه موافقاً، ثم سارا يداً بيد نحو الشرفة.

ـ أبي؟

سألت والدها بلطف عندما وصلت إلى الشرفة ورأت ابتسامته

العريضة، وقد لفت نظره بداهما.

ـ اذهبي وتأكدي من أن الطعام يكفي.. يا إلهي ليتني تذكرت ذلك من قبل.

نظرت إلى والدها بتعجب وهي تتساءل في سرها ما إذا كان والدها فقد صوابه.

ـ لماذا؟

ـ علينا أن نعد وجبة عشاء خاصة هذه الليلة، لأننا سنقيم احتفالاً.

عبست ستيفي وقد تملّكتها الحيرة: «أي نوع من الاحتفالات؟».

ـ سنحتفل بالزفاف الوشيك.

تأوهت ستيفي في سرها: «أبي».

ـ لا تجادليني يا أميرة، فالوقت يداهمنا.

ـ ولكن، يا أبي..

رد عليها: «أنظري أمامك..».

وأشار بأصبعه إلى الطريق والطويل الممتد أمامهم وقال: «ألم أقل لك؟».

نظرت ستيفي إلى حيث أشار، ولم تر سوى سحابة صغيرة من الغبار.

قال وهو يقهقه: «كدت أفقد الأمل من هذين الاثنين، فكلاهما عنيد جداً... ولكن أمك كانت على حق، وما كان يجدر بي أن أشك فيها».

ـ بحق السماء يا أبي، عما تتكلم؟

ـ أختك وكولبي. إنهما في طريق العودة إلى البيت في هذه اللحظة.

نظرت ستيفي إلى الطريق ثانية، فاستطاعت هذه المرة أن تميز لون السيارة ونوعها. كان كولبي عائداً إلى منزلهم... ومع أنها لم تستطع أن ترى بوضوح الشخص الجالس إلى جانبه، فقد خيّل إليها أنها شقيقتها.

***

٧ ـ أحلام تتحقق

ـ حتى هذه اللحظة لا أستطيع أن أصدق ما جرى.

قالت ڤاليري هذا متمنية ألا تكون في حلم، وقد كانت جالسة على سريرها بينما ستيفي ونورا تجلسان على الطرف المقابل من السرير، تستمعان إليها.

قالت نورا بدافع الفضول: «هل طاردك كولبي فعلاً على الطريق السريع؟».

أضاءت ابتسامة عريضة وجه ڤاليري وهي تومىء لهما: «كانت مطاردته لي غاية في الرومانسية. لقد أخبرني أنه لم يدرك أنه ينوي القيام بذلك إلى أن وصل إلى الطريق السريع».

سألتها ستيفي: «هل وجدتما حلولاً لكل المسائل العالقة؟».

كانت تعرف مما أخبرتها به نورا، أن ثمة الكثير من العقبات في طريق زواجهما.

ـ لقد ناقشنا الأمور بروية، توصلنا إلى تسويات مناسبة... عليّ أن أتصل براودي كاسيدي لإقناعه بفتح فرع للشركة هنا، في ولاية أوريغون. لقد انتهى لتوه من وضع دراسة لمنطقة شمال غربي الباسيفيكي، وهو يبحث عن الشخص المناسب لرئاسة هذا الفرع، ولا أظن أنه قد يمانع في إعطائي هذا المركز.

توقفت لحظة متأملة ثم أكملت: «.. من الأفضل مناقشة هذا الأمر

شخصياً».

سألتها نورا وكأنها لا تصدق أذنيها: «ألا يمانع كولبي في استمرارك بالعمل؟».

ـ لا، لأن هذا ما أحتاجه. من الطبيعي أنه يفضل أن أكون في انتظاره في المنزل عند عودته كل ليلة من المستشفى، ولكن سنتعلم بهذه الطريقة كيف نرفه عن بعضنا البعض.

قالت ستيفي: «أنا سعيدة جداً لك».

ثم مالت إلى الأمام لتحتضن شقيقتها... وعكست عينا ڤاليري فرحاً داخلياً لم ترَ له مثيلاً من قبل على محيا أختها، فهذا ما يفعله الحب الحقيقي في المرء.

تابعت ڤاليري حديثها: «الآن وقد قررنا المضي قدماً بهذا الزفاف، يريد كولبي أن نعقده في أسرع وقت ممكن. أتمنى أن يكون الجميع على استعداد لمد يد العون لإنهاء تحضيرات حفل الزفاف قبل الشهر القادم».

جحظت عينا نورا الزرقاوان وهي تقول: «الشهر القادم!».

ـ من حسن حظي أنني استطعت إقناعه بالتريث قليلاً. كان كولبي ينوي اصطحابي إلى فيغاس الليلة لنعقد الزواج.

ردت نورا وستيفي في آن معاً.

ـ مستحيل!

اعترفت ڤاليري بخجل: «لم أكن أعلم أنني من النوع الرومانسي... ولكنني أرغب بحفل زفاف كبير وخيالي. وقد وافق كولبي على ذلك شرط إنهاء التحضيرات بسرعة».

ضحكت ستيفي في سرها... إذ كانت تنتظر الدكتور كولبي وينستون مفاجأة حقيقية، لأن ڤاليري تحسن تنظيم الأمور إلى أقصى حد، وإن كان قد أعطاها شهراً للإعداد لحفل زفافهما، فلا شك أنها ستنفذ هذه المهمة على أكمل وجه وفي وقت أقصر بكثير.

تطلّب حفل الزفاف عملاً شاقاً من كافة أفراد العائلة، إلا أن أحداً لم يتذمر لأن الوقت قد حان للتخلص من الأحزان والقلق والخوف.

سألت نورا وهي تنظر إلى ستيفي مستفهمة: «كنت تقابلين تشارلز باستمرار في الآونة الأخيرة، أتظنين أن باستطاعتنا أن نقيم حفل زفاف مزدوج؟».

نظرت ڤاليري إلى ستيفي بابتسامة عريضة، وكأنها حبذت هذه الفكرة أيضاً.

أجابت ستيفي:

ـ أنا لم أكن أقابل تشارلز بهذا القدر.

وبعد أن أدركت أن لهجتها بدت دفاعية، أضافت: «حسناً، أنا... أظن أننا تقابلنا مراراً في الآونة الأخيرة، ولكننا لم نتطرق إلى موضوع الزواج».

قالت نورا وهي ترمق ستيفي بتمعن: «لطالما أعجبت بتشارلز... أقصد أنه من السهل الوقوع في هوى هذا الشاب. ولكن هذا ليس عدلاً، لم يمض على عودتكما إلى البلدة سوى وقت قصير، وها أنكما تنعمان بحب أفضل شابين في البلدة، بينما أنا لم أغادر البلدة قط، ولم أجد بعد حب حياتي».

احتجت ستيفي قائلة: «أنا؟ إنك تصورين الأمر وكأنه محتم، ولكن ثقي أنه ليس ذلك».

قالت ڤاليري بهدوء: «أنت واقعة في حبه».

لم تجب ستيفي لأنها غير راغبة بالإفصاح صراحة عن مشاعرها نحو تشارلز. من السهل جداً أن تخدع نفسها وتصدق أنه يكن لها بعض العواطف الرقيقة ولكنه لم يقل ذلك قط.

وهي لم تنسَ بعد أنها جعلت من نفسها حمقاء بسبب حبها له.

قالت ستيفي بصوت ناعم ورزين: «أنا لا أعرف ما هي مشاعر تشارلز

نحوي».

ردت نورا بتعجب: «لا شك أنك تمزحين!».

أضافت ڤاليري: «مشاعره نحوك واضحة للعيان».

هزت ستيفي كتفيها استخفافاً وهي تقول: «ماذا لو كان يتقرب مني للوصول إلى نورا؟».

فأجابت ڤاليري ونورا بصوت واحد: «تشارلز؟ مستحيل».

ثم انفجرتا بضحكة مجلجلة.

علقت نورا وهي تغمز ڤاليري لتغيظها: «هل تعنين... أنك لا تمانعين إن خرجت معه؟».

ردت ستيفي بحدة: «افعلي ما يحلو لك».

ولكن في الحقيقة، لو اقتربت نورا منه لخنقتها ستيفي... بيد أنها لا تستطيع الإفصاح عن ذلك.

قالت نورا وهي تهز رأسها: «أظنك تمزحين، كان عليّ أن أدرك ما يجري منذ أمد طويل... أنا لا أفهم لما كنت بليدة الذهن إلى هذا الحد، خاصة وأن روابط الصداقة بين أبي وتشارلز ازدادت لحمة بعد وقت قصير من رحيلك».

ـ هذا لا يعني شيئاً.

أصرت ستيفي على موقفها متمنية ألا ينعش الآخرون آمالها... ومع أن شقيقتيها حسنتا النية، فهذا التشجيع منهما قد يجعل الخيبة أكثر مرارة.

تابعت نورا كلامها: «لولا حرصه على استقصاء الأخبار عنك، لما مرّ لزيارتنا بين الحين والآخر، ولكنني أعترف أن أسئلته كانت ماكرة ومتكتمة».

تدخلت ڤاليري في الحديث بعد تفكير ملي: «إنك محقة يا نورا، فكلما تكلمت مع تشارلز كان اسم ستيفي يدخل في الحديث... كان عليّ أيضاً أن أتكهن بما يجري».

واصلت نورا تعليقاتها اللاذعة وهي تتنهد: «كنت غارقة في حب كولبي حتى قمة رأسك، فكيف كان باستطاعتك الانتباه إلى أي شيء آخر؟».

ثم استطردت قائلة: «لا تسيئا فهمي، إنني سعيدة لكما، ولكنني أتمنى أن أقع في الحب، ألا تعتقدان أن دوري قد آن؟».

سألتها ستيفي: «ألا ترين أنك تتسرعين في استنتاجاتك؟».

لم تكن ستيفي تلبس خاتم الخطبة وتتباهى به مثلما تفعل ڤاليري، وهي لم تصل بعد مع تشارلز إلى مرحلة التعهد والالتزام... ومن المحتمل ألا تصل أبداً. بالإضافة إلى أن الحماقات التي ارتكبتها منذ ثلاث سنوات، كانت نتيجة تكهناتها الخاطئة حول مشاعره نحوها، وهي ليست على استعداد أبداً لتكرار هذا المشهد.

* * *

لم تر ستيفي تشارلز مرة ثانية حتى يوم الثلاثاء. ولم تكن متعجبة لعدم اتصاله بها، لعلمها بانشغاله في إصدار الصحيفة في الأيام الأولى من كل أسبوع.

كانت ستيفي وڤاليري قد ذهبتا بالسيارة إلى محل الأزهار في البلدة، فقد قررت ڤاليري أن يكون حفل زفافها ربيعياً. واختارت لستيفي ونورا فستانين من اللون الأخضر الفاتح الموشح باللون الوردي الخفيف.

ركنت ڤاليري سيارتها في أقرب مرآب إلى متجر الأزهار. ولما كانت مكاتب الصحيفة تقع تقريباً عند الجهة المقابلة من الشارع، كان من الطبيعي أن تلقي ستيفي نظرة فضولية بهذا الاتجاه.

ـ أظنك لم تتصلي بتشارلز منذ يومين، أليس كذلك؟

ـ إنه غارق في العمل.

ـ يمكنك أن تمري لإلقاء التحية بينما أتناقش مع بائع الزهور.

أعجبت الفكرة ستيفي، ولكنها لم تشأ أن تقاطع تشارلز في عمله.

فتصنعت عدم الاكتراث رغم أنها، في الحقيقة، كانت متلهفة لرؤيته. فمنذ أن بدأت تساعد ڤاليري في التحضير لحفل الزفاف، انبعثت في داخلها عواطف دفينة جعلتها تدرك مدى لهفتها لبناء عائلة والارتباط بزوج تحبه وتعيش معه بقية عمرها.

لم تتخيل نفسها متزوجة إلا من رجل واحد... وهذا الرجل هو تشارلز. فوجدت نفسها رغماً عنها منغمسة في أحلامها عن حياتها معه إن تزوجته.. كم كانت تتمنى أن تلقي اللوم على شقيقتيها لأنهما وضعتا هذه الأفكار في رأسها، ولكن هذا مستحيل. فتلك الأحلام ترافقها منذ سنوات عدة، والمشكلة هي أنها لم تعد قادرة على المضي في ذلك.

بعد مرور ساعة تقريباً، وبينما كانت ستيفي وڤاليري خارجتين من متجر الزهور، شاهدتا تشارلز يسير مع ويندي على الرصيف المقابل، وهما غارقان تماماً في الحديث. وفجأة نظر باتجاههما غريزياً وكأنه شعر بوجودها هناك، فعلت وجهه ابتسامة دافئة.

شعرت ستيفي بالارتياح ولوّحت له بيدها. فحذا حذوها، وودع ويندي وعبر الشارع لينضم إلى ستيفي وشقيقتها.

حيّاهما ونظراته لم تفارق ستيفي، وكأنه لم يلاحظ وجود ڤاليري.

ردت عليه التحية وقد رأت أنه من السخف أن تشعر بالخجل معه: «أردت أن أمر لإلقاء التحية عليك، ولكنني أعلم أنك منهمك في العمل».

رد عليها وعيناه تتأملانها بحب: «لا شيء قد يمنعني عنك».

همست ڤاليري في أذن ستيفي: «أرأيت!».

ثم أضافت بصوت مرتفع: «أريد شراء بعض الحاجيات، فاستغلا هذه الفرصة للتحدث معاً».

نظر تشارلز إلى الساعة في معصمه ثم قال: «هل ترافقينني إلى المكتب؟».

ـ بالتأكيد.

حتى وإن اقترح عليها أن يقف وسط شارع ماين، لوافقت بكل طيبة خاطر.

ألقت ڤاليري نظرة سريعة إلى ساعة البرج وقالت لأختها: «ما رأيك لو نلتقي قرب سيارتي خلال..».

ـ خلال نصف ساعة.

أكمل تشارلز الكلام وهو يمسك بيد ستيفي.

ردت ڤاليري بابتهاج: «حسناً، سأكون في انتظارك يا ستيف».

ثم انطلقت مسرعة، من دون أن تنظر إلى الوراء.

عبر تشارلز الشارع إلى مكتبه وهو يشبك أصابعه بأصابع ستيفي، ثم رافقها إلى الداخل وقادها عبر الرواق الرئيسي إلى مكتبه، متجاوزين الموظفين المنهمكين بالعمل.

قالت بعد لحظة: «من الواضح أن شيئاً ما فاتني، هل غيّرت نوع الأحرف؟».

عقد ذراعيه وأسندهما إلى الطاولة، وبدا مسروراً من نفسه بصورة استثنائية: «كلا.. إننا نستخدم مجموعة الأحرف ذاتها».

سألته وهي حائرة قليلاً: «هلا قلت لي ماذا يجري؟».

أجابها وعيناه السوداوان تلمعان: «قد أقترح عليك قراءة ترويسة هيئة الصحيفة».

ـ ترويسة هيئة الصحيفة.

رددت من بعده وهي تقرأ بإمعان جدول أسماء العاملين في الصحيفة والمهام التي يؤدونها.

ـ حسناً، سأفعل... تشارلز توماسيللي... الناشر ورئيس التحرير. روجر سيمونز..

قاطعها وهو يمسك بيدها: «تمهلي».

أعادت القراءة ثانية: «الناشر... ماذا يعني ذلك؟».

ابتسم لها ابتسامة عريضة وقال: «أصبحت يا جميلتي ستيفاني الآن مالك صوت وادي البساتين».

قاومت الرغبة في معانقته، وهي تقول: «تشارلز، هذا أمر رائع!».

أخبرها وقد بدا عليه القلق: «رهنت كل ما أملك لأحقق حلمي.. يظن الكثيرون بأنني أحمق لأجازف بمستقبلي. فالصحف تقفل أبوابها في كل أنحاء البلاد».

ـ لن يكون مصير صحيفتك مماثلاً طالما تنبض الحياة في عروقي.

كان قلبها يرقص فرحاً. فهي تعرف مدى تعلق تشارلز بعمله، والتزامه بالقضايا الاجتماعية.

ـ أنا متحمسة جداً لهذا الأمر.

اعترف لها وهو يبتسم متباهياً: «وأنا أيضاً... أظن أن هذا الحدث يدعو إلى الاحتفال، هل توافقينني الرأي؟».

ـ قطعاً.

ـ ما رأيك بدعوة على العشاء؟

أومأت رأسها بالموافقة ثم اتفقا على الخروج معاً مساء الثلاثاء لتناول العشاء في مطعم يطل على نهر كولومبيا ويبعد مسافة ساعة بالسيارة عن البلدة.

أحست ستيفي وكأن قدميها لا تلامسان أرض الرصيف فيما كانت تحث الخطى للقاء شقيقتها. فطوال معرفتها به، لم تر تشارلز قط سعيداً إلى هذا الحد، حتى أنها كانت بدورها سعيدة معه ولأجله. علمتها هذه الأحاسيس القوية التي لم تعرف لها مثيل من قبل، أن الحب الحقيقي ليس أنانياً أو متكبراً.. الحب الحقيقي يعني مشاركة الحبيب أفراحه وأتراحه. في الماضي، كان هوسها بتشارلز مرتكزاً على رغباتها هي وحدها. أما الآن، فقد نضج حبها له، وقد أيقظ تشارلز فيها مشاعر مدفونة لم تكن تعلم حتى بوجودها.

قالت ڤاليري عندما صعدت ستيفي السيارة إلى جانبها: «تبدين في غاية السعادة، أيعقل أن يكون تشارلز قد طلب يدك؟».

أجابت ستيفي وهي تتنهد: «لا، ولكنه دعاني إلى العشاء للاحتفال... أتعلمين شيئاً؟ أصبح تشارلز المالك الجديد لصحيفة «صوت وادي البساتين»».

علقت ڤاليري بنبرة خلت من الحماس: «ولكنه سيضطر الآن للعمل ساعات أطول، أليس كذلك؟».

ـ لم يذكر شيئاً حول هذا الموضوع.

ـ أتخيل أن مواعيد أكله غير منظمة.

كانت ستيفي تشك بذلك، ولكنها هزت كتفيها بعدم اكتراث: «ليس لدي أدنى فكرة».

ـ بيد أنني أراهن أنه يحب التمتع بوجبة منزلية من وقت إلى آخر، ألا توافقينني الرأي؟

نظرت ستيفي إلى شقيقتها بارتياب وسألت: «هل من غرض وراء هذا الحديث؟».

أجابتها على الفور: «طبعاً، عليك أن تحملي إليه بعضاً من تلك صلصة الرائعة، فالمثل يقول إن الطريق الأقصر إلى قلب الرجل تمر في معدته».

ـ ولكن، ما مصلحتك في هذا؟

اعترفت ڤاليري بدلال: «حسناً، بهذه الطريقة لن أشعر بالذنب إذا ما طلبت منك أن آخذ بعضاً منها إلى منزل كولبي. فلو تذوق صلصة المعكرونة وافترض أنني من تولت إعداد هذا العشاء اللذيذ..».

ثم استطردت قائلة بعد برهة: «... ستستحوذ عليه فكرة الزواج من هذه الطاهية الماهرة، فيضع معي لائحة المدعوين لحفل الزفاف بدلاً من تأجيل ذلك للمرة الثالثة».

ـ هذا جنون يا ڤاليري بلومفيلد!

ـ لم أخبر كولبي بعد، أنني لا أجيد الطهو . . . ولا أريد أن أخيب ظنه بهذه السرعة. لقد اقترح أن أحضر له العشاء الليلة و. . حسناً، أنت تتفهمين الوضع.

ـ سأكون سعيدة بمشاركتك صلصة المعكرونة.

ـ سأمكث في المطبخ لبعض الوقت حتى تعلق رائحة الطبخ في ملابسي.

ـ سأعلمك طريقة إعدادها، لو أردت.

ـ أرغب بذلك، ولكنني خرقاء ولا أحسن استعمال أدوات الطبخ أطلاقاً.

قهقهت ستيفي . . . فهي لا تمانع مطلقاً بمساعدة شقيقتها في تحضير العشاء لكولبي ولكنها لم تقتنع بفكرة حمل طبق الصلصة إلى بيت تشارلز . . . إلا أن ڤاليري ونورا أقنعتاها بالعكس.

ذكرتها نورا قائلة: «لم يتذوق تشارلز قط طبخك، فتلك الليلة، عرضت عليه تناول العشاء، ولكنه رفض ذلك، أتذكرين؟».

ـ كيف عرفت بهذا الأمر؟

بدت الدهشة على وجه نورا، وكأن الجميع مدرك لما يجري بين ستيفي وتشارلز.

ـ أخبرني أبي.

ومن غير والدها العزيز يحاول أن يجمع بينهما؟

قالت ڤاليري: «لا ضير في هذا، يمكنني أن أرافقك إلى منزل تشارلز لنترك له الطعام».

لم تقتنع ستيفي تماماً بالفكرة، ولكن ڤاليري ونورا وجدتا ذلك غاية في الرومانسية، خاصة وأنهما واثقتان من جدية تشارلز في علاقته بها.

لم تعد ستيفي تعرف بماذا تفكر. وكانت تفضل في الحقيقة، ألا تفكر على الإطلاق في علاقتهما. ومع ذلك. .

ظلت مترددة حول فكرة مفاجأته بطعام العشاء. ولكن ڤاليري ونورا

كانتا متأكدتين من نجاح هذه الفكرة.

كانتا في الظاهر على حق.

جلست ستيفي على سريرها تطالع رواية مشوقة عند الساعة العاشرة والنصف ليلاً، فتناهى إلى مسمعها عبر نافذة غرفة نومها، المفتوحة، صفير الرياح الناعم بين الأشجار. كان البيت ساكناً، وقد خلد والدها إلى النوم قبل ساعة، بينما خرجت شقيقتاها لقضاء السهرة مع الأصدقاء.

رن جرس الهاتف فرفعت السماعة على الفور خشية أن توقظ والدها.

سألها تشارلز بصوت فرح: «كيف حالك؟ وصلت إلى البيت مرهقاً وجائعاً، فشممت رائحة الحبق والثوم حالما دخلت من الباب. تتبعت حاسة الشم لأصل إلى الطاولة حيث وجدت رسالتك الصغيرة».

ـ يجب أن تشكر ڤاليري ونورا، فهما صاحبتا الفكرة.

ـ لم أتذوق معكرونة لذيذة الطعم كهذه منذ وفاة جدتي. حتى إني نسيت كم أن طعام المنزل لذيذ!

انشرح صدر ستيفي لهذا المديح فقالت: «هل أعجبتك؟».

ـ كثيراً. كان الأمر أشبه بالعودة إلى أيام طفولتي وأطباق جدتي الشهية. . . إنك طاهية ممتازة.

استندت ستيفي إلى الوسادة وأغمضت عينيها، وهي تستمتع بهذه اللحظات الجميلة.

أضاف قائلاً وقد دل صوته على الرضى: «لمسة لطيفة أن يرافق ذلك زجاجة شراب ورغيف خبز».

قالت له ثانية فيما كانت تساورها أحاسيس غريبة.

ـ أنا سعيدة.

رد عليها تشارلز: «لو أنك لا تقيمين بعيداً لأتيت في الحال لأشكرك».

ـ ليتني حقاً لا أقيم بعيداً.

أضاف بنبرة ناعمة: «ثمة أمور أخرى أتمناها أيضاً».

ردت بصوت مضطرب: «تمنى ثلاث أمنيات فقط».

قهقه تشارلز بلطف: «ثلاث فقط؟ وماذا لو تمنيت أربع؟».

ـ أذكر أني قرأت ذات مرة عن صحفي شاب تحول إلى ضفدعة بسبب جشعه.

ـ كم بقي لدي؟

ـ أمنيتان.

ـ لا بأس سأحاول أن أحسن اختيارها... أتمنى لو كنا في هذه اللحظة في الأسطبل عندكم.

ـ هل الأسطبل أمنية حياتك؟

ـ يبدو لي أنه كلما دخلت الأسطبل، ينتهي الأمر بك بين ذراعي. وفي الحقيقة، أنا أتشوق لتفقد خيول أبيك قريباً.

ـ هذه أمنية سهلة المنال... وأظن أن «فيوري» و«برنسيس» سيهتزان طرباً.

ـ أنا سعيد لسماع ذلك.

كان باستطاعة ستيفي أن تتصوره ممدداً على الأريكة باسترخاء، يتحدث إليها وهو يحمل كأساً من الشراب في يده.

ـ كن حذراً! لم يتبقَ لديك سوى أمنية واحدة.

ـ أمهليني قليلاً.. لأختار أمنيتي بدقة. وفي حال لم تلاحظي، فأنا أشعر بالدوار قليلاً.

ابتسمت وقالت: «لقد لاحظت ذلك».

ـ أتعرفين ما أتمناه؟

ـ أخبرني أنت.

ـ أمنيتي الأخيرة... أن أمحي الماضي كله.

أدركت ستيفي فوراً أنه يلمح إلى المواجهات التي حدثت بينهما منذ

ثلاث سنوات. فقالت: «هذا سهل».

مسحت الهواء بيدها وكأنه يستطيع أن يراها، وأضافت قائلة: «انظر، لقد محوت كل شيء ورميته جانباً».

ـ آهه.. أوه. أظن أنني ارتكبت خطأً.

ـ لماذا تقول ذلك؟

ـ لا يمكننا أن نمحوه بهذه السهولة.

سألته وهي تسعى جاهدة لتبديل الحديث: «لمَ لا؟ كانت تلك إحدى أمنياتك، وأنا أملك السلطة لأحققها لك، وها قد فعلت».

ـ لكنني لا أريد أن أمسحه كلياً.. دعينا نتحدث عما جرى بيننا في الماضي حتى ننتهي من هذا الأمر إلى الأبد.

قفز قلب ستيفي من مكانه، فردت عليه بصوت خافت، غير راغبة بإفساد هذه اللحظات الممتعة: «آسفة، لقد اختفى وتبخر. وليس لدي أدنى فكرة عما تتحدث».

تريث قليلاً قبل أن يجيبها قائلاً: «أنت على حق، لا يمكننا مناقشة هذه المسألة على الهاتف».

ـ إنك مرهق.

ـ هذا غريب، إنني مرهق للغاية... وفي الوقت ذاته أشعر أنني أريد أن أحملك بين ذراعي وأدور بك حول الغرفة.

ـ لم تذكر لي أنك ستشتري الصحيفة.

لم تقصد أن تنتقده... ولكنه استطاع أن يحفظ هذا الأمر سراً، ليس عنها فقط... بل عن كل سكان البلدة، حتى والدها دهش مثلها عندما أبلغته الخبر.

ـ ثقي بأنني كنت أتوق لإخبارك، ولكنني منعت من الكلام قبل أن أتوصل إلى اتفاق مع شركة دالتون للنشر.

تمددت ستيفي على السرير وهي تقول: «لقد حصلت تغيرات كثيرة

في حياة كل منا، فأبي أصيب بنوبة قلبية، وڤاليري وقعت في الحب وتستعد للزواج.. أوه يا تشارلز، ليتك رأيت ڤاليري. فسعادتها لا توصف... ذهبت معها يوم الاثنين لاختيار فستان العرس، فوقفت أمام المرآة والدموع تنهمر بغزارة على وجنتيها».

ـ هل كانت تبكي؟

ابتسمت ستيفي وهي تتذكر ما حدث: «إنها دموع الفرح، فهي لم تخل أبداً أن كولبي يحبها بما يكفي لإزالة العقبات التي تقف في طريق حبهما.. لا شك أن طباعهما مختلفة تماماً، ولكن لم يدرك أيّ منهما أن هذا الاختلاف بالذات هو الذي جذب أحدهما إلى الآخر».

ـ نحن أيضاً مختلفان.

عجزت ستيفي عن الكلام برهة، ثم قالت متلعثمة: «أعرف ولكن..».

ـ أنا مفتون بك يا ستيفاني.

ويا لسخرية القدر! فهي التي أخبرته للحظة خلت عن شقيقتها واضطرابها، وجدت نفسها جالسة على السرير وسماعة الهاتف ملتصقة بأذنها والدموع تنهمر على خديها.

ـ ألن تقولي أي شيء؟

همست بصوت مرتعش: «بلى».

ـ ستيفاني؟ ما الأمر؟ هل تبكين؟

أسرعت تقول وهي تفرك عينيها باليد الأخرى: «ما هذا الكلام السخيف!».

ـ اللعنة! ليتني قربك.

ردت وهي تضحك وتبكي في آن واحد: «آسفة، لقد استنفذت أمنياتك كلها!».

***

٨ ـ البطلة المفجوعة

ـ المزيد من الشراب؟

سألها تشارلز وهو يمد يده إلى زجاجة المرطبات الموضوعة في آنية من الفضة.

ردت ستيفي وهي تبتسم بامتنان.

ـ لا، شكراً.

كان عشاءهما ممتعاً، ووجبة الطعام شهية...

ـ ما رأيك بالحلوى؟

ضغطت ستيفي بيديها على معدتها ثم هزت رأسها ببطء قائلة: «أظنني أصبت بتخمة».

ـ وأنا أيضاً.

أسند ظهره إلى المقعد ونظر من النافذة التي تطل على نهر كولومبيا، الذي يمتد مجراه عبر أجمل المناطق الطبيعية في ولاية أوريغون. لطالما أحبت ستيفي منظر هذا النهر العظيم الذي تحده الصخور من الضفتين.

عاد تشارلز لينظر إليها وقال: «منذ زمن وأنا أنتظر بلهفة هذه الأمسية».

حتى هذه الليلة، كان قضاء أمسية ممتعة مع تشارلز مجرد حلم بالنسبة لستيفي... وها هو يعاملها كإنسان راشد.. كامرأة واقعة في الحب.

ردت عليه: «وأنا أيضاً».

ـ لا أظن أنني رأيتك بهذا الجمال من قبل يا ستيفاني.

أخجلتها كلماته، فعلا الاحمرار خديها... كانت ستيفي قد اختارت ملابسها بعناية فارتدت فستاناً أنيقاً، واستعارت من ڤاليري عقداً وقرطين من اللؤلؤ، وتعطرت بأفخر أنواع العطور.

وبدا لها أن والدها وشقيقيتها يعقدون آمالاً كثيرة على هذه الأمسية، مع أن ستيفي لا تعرف تماماً ما الذي يتوقعه أفراد أسرتها بالضبط... ربما معجزة ما، ولكنها هي كانت مكتفية بقضاء الأمسية مع تشارلز، ليس إلاّ.

ـ وأنت تبدو وسيماً.

لم تكن ترد له التحية بالمثل، بل تقول الحقيقة. فقد ارتدى بذلة داكنة وربطة عنق حريرية مزركشة وقميصاً من اللون الأزرق الفاتح.

علّق تشارلز وهو يحمل كأس العصير بين يديه: «لا بد أننا نشكل الليلة زوجين جذابين».

وافقته ستيفي الرأي قائلة: «أظنك محق!».

شرب تشارلز كأس العصير حتى آخر نقطة ثم وضعه جانباً.

ـ أشكرك على كرمك البالغ تلك الليلة. فقد حققت لي ثلاث أمنيات، أتذكرين؟

لن تنسى ستيفي أبداً محادثتهما الهاتفية تلك... فكلما فكرت فيها، شعرت بالارتعاش في داخلها.

ـ بما أنني رجل كريم الأخلاق، وموهوب ووسيم، أرى أنه من الإنصاف أن أرد لك الجميل. سأحقق لك يا سيدتي، ثلاث أمنيات.

رفعت ستيفي رأسها وسألت: «أي شيء أريده؟».

ـ لك ما تريدين... فأنا مستعد لاصطحابك بسيارتي إلى شلالات مولتنوما فولز لمشاهدة المياه تحت ضوء القمر، ولكن قد أجد صعوبة مثلاً في تحقيق السلام في العالم.

ـ الشلالات تحت ضوء القمر؟

ـ كنت أتمنى أن تطلبي ذلك!

فقالت وهي مندهشة: «تشارلز، أنت رجل رومانسي».

ـ لمَ تبدين مصدومة إلى هذا الحد؟

ـ لم أخالك كذلك أبداً.

كانت تحاول أن تغيظه ففوجئت به يعقد حاجبيه للحظة قصيرة: «هذا لأننا لم نتحدث أبداً عما حدث منذ ثلاث..».

قاطعته وهي تضع أصبعها على شفتيه: «ليس الليلة... وهذه أمنيتي الثانية».

ازداد تجهمه: «علينا أن نفعل ذلك، فثمة أمور كثيرة...».

ذكرته بوقار: «أنت من أظهر استعداده ليحقق لي ثلاث أمنيات».

أومأ برأسه وقد بدا عليه الاستياء: «أنت على حق، ولا يمكنني أن أفرض عليك أمنياتك».

ـ من الأفضل ألا نفسد هذه اللحظات الممتعة بإعادة إحياء الماضي، خاصة إن كان مؤلماً. دعنا نتطلع إلى المستقبل..

ـ لا بأس.

وافقها تشارلز، ثم استدار ليشكر النادل الذي جلب لهما القهوة الساخنة.

ـ سنكتفي بالتطلع إلى المستقبل... تذكري أنه لم يعد لديك سوى أمنية واحدة.

ترددت ستيفي ثم سألت: «هل عليّ أن أقولها الآن؟».

ـ كلا، إنما عليك بذلك قبل حلول منتصف الليل.

ضحكت ستيفي برقة: «أشعر وكأني سندريللا».

ـ ربما لأنني أحب أن أكون أميرك.

كانت نظراته ثاقبة، فأخفضت ستيفي نظرها، خشية أن يقرأ في عينيها كل الحب الذي تكنه له.

سألها بعد قليل: «هل أخيفك؟».

حدقت ستيفي إليه مجدداً: «لا، ظننت أنني أنا من يخيفك».

ضحك فوراً على ما قالته: «هذا محال».

احتسيا القهوة بصمت وكأنهما يخشيان أن تفسد الكلمات متعتهما، ثم دفع تشارلز فاتورة المطعم وتوجها بالسيارة إلى الشلالات. كانت ستيفي قد زارت مراراً مولتنوما فولز، ولكنها لطالما خشيت المنعطفات الخطيرة، إلا أنها استرخت في مقعدها وراحت تستمتع بالمناظر الخلابة بينما تشارلز يقود السيارة بمهارة وبطء.

قال تشارلز وهو يركن سيارته على الجهة المقابلة للشلالات: «أحب هذا المكان».

لم يجدا سوى بضع سيارات في الموقف لأن اليوم ليس يوم عطلة.

بدأ الظلام يخيم، وباتت المنحدرات الحرجية مظلمة، لما أخذ تشارلز وستيفي ينزلان الدرج اللولبي الذي يؤدي إلى مطل الزوار.

أحست ستيفي برعشة برد تسري في ذراعيها، وحمدت ربها لأنها حملت معها معطفاً رقيقاً، لمعرفتها أن شلالات مولتنوما هي أعلى شلالات ولاية أوريغون، حيث تتساقط المياه عمودياً من ارتفاع يبلغ مئتي متر إلى بركة كبيرة ثم تعاود الانحدار في شلال أقل ارتفاعاً. وكان رذاذ المياه المتساقطة بقوة يغشي عتمة الليل.

قادها تشارلز من ذراعها وهو يشق الطريق المتعرج وصولاً إلى الممر الذي ينتهي عند جسر مشاة يمتد بين طرفي الشلال. توقفت ستيفي في منتصف الجسر لتحدق بنظرات مبهورة إلى ما حولها، وهدير المياه المتساقطة يصمّ أذنيها.

وقف تشارلز وراءها ولف ذراعيه حولها ليقيها الهواء الذي يلفحها عبر سطح المياه، وقال: «سنرى بعد لحظات قليلة القمر وهو يلقي بأشعته على سطح المياه».

أغمضت ستيفي عينيها... ليس لجمال المناظر أمامها، ولكن للأحاسيس التي تدفقت من احتضانه لها.

همس في أذنها: «لقد حلمت أن أحتضنك هكذا، وأن ألف ذراعي حولك وأشعر بقربك مني. أحب رائحة شعرك الذي يذكرني بالأزهار البرية وأشعة الشمس».

لم تستطع الرد. لم تستطع أن تخرج من حلقها حتى كلمة واحدة.

ابتلعت ريقها وأخذت تتنفس ببطء، علّ ذلك يساعدها على الكلام... فلديها أمور كثيرة تتوق إلى قولها، وأشياء عديدة تتلهف لإخباره بها.

أخبرها تشارلز بنبرة محزنة ومجروحة: «أنا لا أريد الافتراق عنك مرة أخرى... أبداً».

لم تستوعب ستيفي ما قاله. كل ما فعله تشارلز في الماضي أنه أبعدها عنه، كل ما فعله أنه طردها من حياته. استدارت بين ذراعيه لتصبح في مواجهته ورفعت يديها إلى وجهه.

ابتسم تشارلز ثم أمسك معصميها برقة وأدنى يديها من فمه ليقبل راحتيها، الواحدة تلوى الأخرى.

ثم قال: «أتعرفين... كان لدي أمور كثيرة عجزت عن قولها منذ ثلاث سنوات».

ذكرته بلطف: «ما زال لدي أمنية واحدة.. وأريدك أن تعانقني الآن».

علت ابتسامة عريضة وجهه وقال: «بكل سرور».

لقد تعانقا قبلاً، ولكن لم يتبادلا مثل هذه الأحاسيس قط. تلاقيا في أحلى عناق خبرته ستيفي... عناق فجّر عواطفها كلّها.

رغبت ستيفي في هذا، رغبت به أكثر من أي شيء في حياتها، ولكن الحيرة أغرقتها في الوقت ذاته. لقد أمرها تشارلز بالخروج من حياته، وسخر منها عندما أفصحت له عن حبها، وأذلها إلى درجة لم تعد تطيق

معها البقاء معه في البلدة ذاتها. والآن، يبدو أنه يلمح إلى أنه لم يكن يريدها أن ترحل عنه، وأنه لا يريدها أن ترحل أبداً عنه مرة أخرى.

حارت ستيفي في أمرها. فمن جهة ترغب من كل قلبها أن تذوب بين ذراعي تشارلز، وتستمتع بكل الأحاسيس التي تغمرها... ومن جهة أخرى تتساءل بحيرة، هل الأمر مجرد رغبة عابرة أم أنه أيضاً يشعر نحوها بالحب الأزلي ذاته الذي تكنه له؟

ولكن عناقه قطع عليها كل أفكارها... واستعرت النيران في عروقها، لتأخذ مكان الخشية والارتياب.

***

عندما دخلت ستيفي البيت في وقت لاحق من تلك الليلة، لاحظت النور المتسرب إلى الردهة من غرفة والدها. رأته جالساً بجانب المدفأة، فدخلت للاطمئنان عليه.

كان دافيد جالساً على الكرسي الجلدي، وقد غطى ساقيه بشال من الصوف كان لأمها. وإذ أدركت أنه يغط في النوم، استدارت للخروج من الغرفة على أطراف أصابعها، ولكنها ما لبثت أن سمعته يقول: «أهذه أنت يا ستيفي؟».

ردت عليه برقة: «لم أشأ إيقاظك».

استقام في جلسته وهو يقول: «حسناً، لقد كنت بانتظارك... كيف كان العشاء؟».

غاصت ستيفي في المقعد الوثير، وثنت ساقيها ودستهما تحت جسمها. كانت تعلم أن عينيها تبدوان ذابلتين ولكنها لم تكترث للأمر..

ـ كان العشاء رائعاً.

ـ هل طلب تشارلز منك شيئاً محدداً؟

رددت كلامه وهي تتظاهر بعدم الفهم: «طلب مني شيئاً محدداً؟ ماذا تقصد؟».

تجهم وجه دافيد بلاومفيلد وردّ عليها: «لقد ظننت.. أملت أن يتقدم بطلب يدك.. للزواج».

ردت عليه بشيء من عدم الاكتراث: «حقاً!».

لم تبدِ ستيفي امتعاضاً من إصراره على التطرق إلى هذا الموضوع، خاصة بعد أن أمضت لحظات رائعة خلال تلك الأمسية.

ـ أتقصدين أنه فعل؟ ماذا قال لك؟ هيا يا أميرتي أخبريني ولا تتركيني في حيرة من أمري.

استعرضت ستيفي أصابعها وتفحصت أظافرها المطلية بعناية قبل أن تتنهد وتجيب: «قلت له بأنني سأبت في الموضوع يوم الأحد».

ـ الأحد؟ هل ستدعين هذا الشاب العزيز يعاني حتى يوم الأحد؟

أومأت برأسها وهي تتظاهر بعدم الاكتراث: «لقد سألني إن كان باستطاعتنا القيام بنزهة على الخيل. وأجبته بأننا قد نستطيع ذلك يوم الأحد، أليس هذا ما كنت تشير إليه؟».

بدت عليه الخيبة وهو يرد عليها: «كنت أتوقع من هذا الشاب أن يطلب منك الزواج».

ـ حسناً، لم يتطرق إلى هذا الموضوع، وحتى وإن فعل..

قال لها دافيد وقد بدا عليه الاستياء: «ماذا؟ اسمعي يا ستيفاني، لقد ورثت عن أمك عنادها. ولكن لا يمكنك أن تستغفليني. أنت واقعة في حب تشارلز، وإذا طلب منك أن تتزوجيه..».

ـ ولكنه لم يفعل... ولا أظنه ينوي ذلك.

ـ أنا لا أوافقك الرأي.

ـ أنت حر في رأيك يا أبي. ولكن لا تنسى أن هذه حياتي وأرجو منك ألا تتدخل فيها. هذا فضلاً عن أن تشارلز لا يحبذ التدخل في خصوصياته.

غمغم والدها بصوت منخفض: «لم يطلب منك الزواج، وتعتقدين أنه لا يعتزم ذلك؟».

- كلا.

بدا على والدها السخط وهو يقول: «من الأفضل أن أتحدث مع هذا الفتى... فلن أسمح له أن يعبث بعواطفك».

- أبي.

ضحكت ستيفي رغماً عنها من التعبير البالي الذي استخدمه... كانت واثقة أن تشارلز أيضاً سيجد الأمر مضحكاً لو قالت له إنه يعبث بقلبها.

- أنا جاد في ما أقوله، ستيفي، وأرفض السماح لهذا الشاب أن يجرح مشاعرك ثانية.

- لا يمكنه أن يجرح مشاعري إلا إن سمحت له بأن يفعل. ولكنني امرأة عصرية من القرن العشرين، وأمثالي أكثر دهاء من أن ندع رجلاً يعبث بنا.

- ولكن من الأفضل أن أتحدث إليه.

بالرغم من أنها حاولت جهدها للحفاظ على رباطة جأشها، إلا أنها كانت تشتعل غضباً في داخلها، فتوسلت إليه قائلة: «لا تقدم على ذلك».

- أظن أن تشارلز توماسيللي لا يعرف صالحه.

- أبي! لقد تحدثنا في هذا الموضوع من قبل، أتذكر؟

ثم استطردت قائلة: «أريد منك أن تعدني بألا تتدخل بيني وبين تشارلز».

رفض والدها الإجابة على طلبها بعناد.

- أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني قبل أن أسمعك تبحث معه موضوع زواجنا.

- ولكن...

- إني أعتمد عليك يا أبي، ليلة سعيدة.

نهضت من مكانها وطبعت قبلة على جبينه ثم صعدت إلى غرفتها.

***

- إنني ممتنة لك لأنك اقترحت اصطحابي إلى المطار؟

شكرتها ڤاليري بينما كانت السيارة تخرج بهما من البلدة ظهيرة يوم السبت. كان موعد رحلة شقيقتها الساعة الخامسة، مما سمح لهما بالتمتع برحلة السيارة إلى مطار بورتلاند. أما هدف ڤاليري من هذه الرحلة، فهو الاجتماع مع راودي كاسيدي وإخباره عن خطوبتها والطلب منه نقلها من هيوستن إلى بورتلاند.

طيبت ستيفي خاطر شقيقتها الكبرى: «لا عليك، إنه لمن دواعي سروري».

لم تحدد ڤاليري موعد سفرها إلى تكساس، إلا بعد أن وضعت اللمسات الأخيرة على ترتيبات زفافها، فعلاوة عن اجتماعها مع كاسيدي كان عليها إنجاز بعض الأمور، ومنها توضيب أمتعتها الشخصية وأثاث منزلها، وعرض شقتها للبيع.

أوضحت ڤاليري على عجل: «أراد كولبي مرافقتي ولكن جدول مواعيده منعه عن ذلك. أظن أنه عليّ الاعتياد على هذا الأمر».

- جدول أعماله؟

هزت ڤاليري رأسها: «يجب أن أناقش هذا الأمر مع راودي خلال وجودي في هيوستن».

- أتظنين أنه قد يوافق على توليك رئاسة فرع شركة تشيبس في الساحل الغربي؟

- من الصعب التكهن.. لا أظنه سيسر بمغادرتي هيوستن، ولكن ليس لديه خيار آخر.

لاحظت ستيفي تردد شقيقتها بعض الشيء، بينما كانت تضيف قائلة: «من الصعب التكهن بردات فعل راودي. فمن جهة، قد يسر لسماعه خبر خطوبتي من كولبي... ومن جهة أخرى، قد يثور غضباً لأني سآخذ إجازة

طويلة لأستعد لحفل زفافي. كما وأني لم أخبره عن السبب الذي منعني من العودة إلى هيوستن يوم قررت السفر في المرة السابقة».

ردت ستيفي بفضول: «ولمَ لم تفعلي؟».

أشاحت ستيفي نظرها عن الطريق لبرهة والتفتت إلى ڤاليري، التي لم ترد عليها على الفور.

تذكرت ستيفي ما شعرت به يوم شاهدت تشارلز يقف بجانب ويندي، الصحافية المتدرجة عنده. لم يكن قد خطر على بالها يوماً قبل تلك اللحظة، أنها قد تشعر بالغيرة. ولكن كلما استرجعت في ذهنها كيف كانت تلك الصبية الشقراء تحدق إلى تشارلز بعينين ملؤهما الإعجاب والتقدير، تشعر بالدم يغلي في عروقها.

- كان عليّ أن أفعل... ولكن هذه الأمور لا تناقش على الهاتف. وأخشى أن راودي، قد.. يكون مهتماً لأمري. في وقت من الأوقات، خيل إليّ أنني أهتم لأمره أيضاً! يا إلهي، لم أكن أعرف شيئاً عن الحب إلى أن التقيت كولبي. أنا لا أريد أن أجرح مشاعر راودي، ولكن، في الوقت ذاته، لا أستطيع أن أحمي آماله.

- أتريدين أن أرافقك في هذه الرحلة؟

- لا. لا، راودي رجل مهذب، رغم قناع الخشونة والصلابة الذي يضعه.

سألتها ستيفي: «هل يعرف الطبيب العاشق حقيقة مشاعر راودي نحوك؟».

- ربما. ولكننا لم نتطرق قط إلى موضوع راودي. بصراحة أظن أن كولبي يفضل أن يتناسى كل شيء عنه.

- من الأفضل ألا يدفن رأسه في الرمل كالنعامة.

ردت ڤاليري عليها بحدة: «اسمعي، إياك أن تتفوهي أمامه بكلمة، فما يحدث بيني وبين راودي لا يعني أحد سوانا».

- هل كولبي من النوع الغيور؟

- لست أدري. جل ما أعرفه هو ما قد أشعر به لو انعكس الوضع.

حاولت ڤاليري أن تزن كلماتها: «كان كولبي يواعد ممرضة قبل خطوبتنا... أعتقد أنها صديقة نورا. وقد كان الجميع يتوقع أن يعلنا خطوبتهما، ولكن نورا كانت تظن خلاف ذلك».

- أقسم أن لنورا حاسة سادسة.

أومأت ڤاليري برأسها: «أعتقد ذلك أيضاً... يوم ارتأينا أنا وكولبي، أن ارتباطنا بعلاقة طويلة الأمد غير وارد، طلب مني كولبي أن أسرع بالسفر لأن بقائي يزيد الأمور سوءاً».

قاطعتها ستيفي قائلة: «لحسن الحظ أنه لم يقل ذلك في حضوري».

ضحكت ڤاليري وردت: «لم يقصد ذلك... ولكني بدوري لم أجعل الوقوع في الحب سهلاً لكلينا».

فكرت ستيفي وهي تكشر بحسرة أن العناد سمة مشتركة بين الأخوات بلومفيلد.

- عاد كولبي يخرج مع شيري بعد أن أنهينا علاقتنا، وأعتقد أنهما خرجا أربع أو خمس ليالي على التوالي. لم أعرف بالأمر، ولكنني حتماً شعرت به لأني قطعاً لم أتفاجأ عندما سمعت الخبر. وجدت نورا الطيبة أن من واجبها إخباري بما يجري. وأظن أن هذا الأمر كان أكثر صعوبة عليها مني.

- هل شعرت بالغيرة؟

ردت ڤاليري وهي مستغرقة في التفكير: «هذا هو الجانب المضحك. في البداية شعرت بغيرة شديدة جعلتني أرغب باقتلاع عيني شيري. وأخذت أتخيل نفسي أتعقب كولبي وينستون حتى أمسك به وأعذبه».

- لكان من دواعي سروري أن أتطوع لمساعدتك.

ابتسمت ڤاليري وربتت على ذراع ستيفي: «شكراً أختاه. ولكن، كما

قلت لك كانت. . . تلك ردة فعلي الأولى، ولكن ما أثار اهتمامي هو أن ذلك الشعور سرعان ما تلاشى. فبعد أن فكرت ملياً بالأمر، أدركت مدى أنانيتي مع كولبي. . . فإن كنت أحبه حقاً يجب أن أتمنى له السعادة، حتى وإن كان ذلك يعني زواجه من شيري واترمان».

ـ بمعنى آخر، كنت على استعداد للتخلي عنه.

ـ نعم، كانت هذه نقطة تحول بالنسبة إلي. . لقد آلمني ذلك أكثر من أي شيء آخر. أما زلت تذكرين يوم قررت السفر إلى هيوستون؟

ـ بالتأكيد.

ـ عندما تأهبت للمغادرة، بذلت جهداً بالغاً للسيطرة على نفسي حتى لا أنفجر بالبكاء.

ـ أحسست حينها بانزعاجك.

هزت ڤاليري رأسها متصنعة الغيظ: «وفي تلك اللحظات العصبية، قرر كولبي أن يعرّج للزيارة».

ضحكت في سرها بينما تابعت ڤاليري كلامها: «استطعت بطريقة ما أن أتمالك نفسي، وأذكر أنني جلست داخل السيارة وقد استولت علي السكينة. . . إياك والسخرية يا ستيفي. أنا جادة في كلامي، فأنا لم أكف عن حب كولبي، وأدركت أن حبي له قد ازداد. وفي الوقت عينه كنت مستعدة للابتعاد عن أول رجل أحببته في حياتي».

ـ شعرت حينها برغبة جامحة بخنق كولبي.

ردت ڤاليري مكشرة: «أذكر قصة البطل المفجوع التي سمعتها في حصة الآداب بالجامعة، وشعرت نوعاً ما وكأني مؤهلة لأكون البطلة المفجوعة».

ـ ولكنك لم تندمي على وقوعك في حبه، أليس كذلك؟

ـ كلا، كنت راضية. فعلى الرغم من أني تخليت عنه، أعطيته في الوقت عينه الفرصة للبحث عن سعادته.

تذكرت ستيفي مشهد الوداع على الشرفة الأمامية لمنزلهم، ثم قالت لڤاليري: «لا أعرف إن كان باستطاعتي التصرّف بهذه الشهامة لو حدث مثل هذا الأمر مع تشارلز».

ـ بالمناسبة، ما الذي يجري معكما؟

ردت ستيفي بصدق: «لا أعرف. أمضينا أمسية رائعة يوم الخميس الماضي وذهبنا بالسيارة إلى شلالات مولتنوما لنتفرج على انعكاس ضوء القمر على صفحة المياه».

ـ يخيل لي أنها كانت أمسية رومانسية جداً.

ـ صحيح. تنزهنا على جسر المشاة و. . تبادلنا الأحاديث.

ردت ڤاليري بسخرية: «حقاً!».

ـ هذا صحيح. . غير أننا تعانقنا أكثر مما تحدثنا.

كانت ستيفي تعلم أن تشارلز يودّ أن يعيد نبش الماضي، ولكنها كانت ترفض فكرة استرجاع الألم الذي شعرت به حينها. كما كانت تخشى، أكثر من أي شيء آخر، إعادة النظر في تصرفاتها السخيفة، وكلما استعادت في ذهنها ذكرى إهانته لها، شعرت بالألم يعتصر قلبها. يوماً ما، سيتحدثان في هذا الموضوع، ولكن ليس الآن فالأوان لم يحن بعد.

ـ يبدو أن أبي مؤمن بزواجكما القريب.

منذ أسبوعين، وهذا الموضوع يشكل محور نقاشهما اليومي.

ـ أنت تعرفين كيف يتصرف أبي عندما تستولي عليه فكرة ما. جعلته يقسم لي بألا يأتي على ذكر موضوع الزواج مع تشارلز.

سألتها ڤاليري: «أتظنين حقاً أنه سيصغي إليك؟».

ـ من الأفضل له أن يفعل.

تجهّم وجه ڤاليري والتفتت نحو النافذة لتنظر من خلالها. شدت ستيفي قبضتها على مقود السيارة ونظرت من حولها لتشاهد شجيرات الدفلى على جانبي الطريق بأزهارها الوردية.

ـ إني قلقة على أبي.

تفاجأت ستيفي بكلمات ڤاليري، فقالت: «لماذا؟ حالته الصحية تتحسن يوماً بعد يوم، وشفاؤه أشبه بمعجزة. وقد سمعتك تكررين ذلك مراراً».

ـ حسناً، سأعيد صياغة جملتي: «أنا قلقة من أجلك».

ـ من أجلي؟ لمَ؟

فهي لم تكن قط أحسن حالاً مما هي عليه الآن، فقد تقدمت بطلب لمتابعة دراساتها العليا وستبدأ بالبحث عن مواضيع لأطروحتها، وأجّلت مؤقتاً مسألة الحصول على وظيفة. وفي ما يتعلق بتشارلز... حسناً، تجري الأمور بينهما على شكل رائع... صحيح أنه لا يزال أمامها عقبات كثيرة ينبغي تذليلها، ولكن لديها متسع من الوقت لذلك.

ذكرتها ڤاليري: «يبدو أنه مقتنع تماماً بزواجك من تشارلز طالما أن المياه عادت إلى مجاريها بيني وبين كولبي... ولا تنسي أن هذه الأمور تراءت له في الحلم».

ـ أعلم ذلك. ومنذ أسبوعين وهو يذكرني مرتين في اليوم على الأقل، أنني سأتزوج تشارلز قبل نهاية الصيف. وقد وصل بي الأمر إلى الاكتفاء بالابتسام له وعدم الرد عليه.

ـ ألا يزعجك ذلك؟

ـ إنه يفقدني صوابي.

لعل ذلك مرده إلى رغبتها الشديدة بتصديق كلام والدها.

ـ أليست أعصابك متوترة، خشية أن يفقد أبي صبره ويقدم على قول شيء ما لتشارلز؟

أجابت ستيفي على الفور: «لا، لقد تباحثنا في هذا الأمر، وهو يعي أنه من الأفضل ألا يأتي على ذكر شيء لتشارلز».

هزت ڤاليري رأسها: «يا ليتني أستطيع أن أشاركك هذه الثقة».

حافظت ستيفي على بشاشة الوجه طوال الطريق، ولكن قلقها كان يتفاقم. وجل ما تعرفه هو أنها غير مؤهلة للعب دور البطلة المفجوعة... وستترك هذا الدور لشقيقتها الكبرى، الحكيمة أكثر.

أقلعت الطائرة في موعدها، وحالما صعدت ڤاليري إلى الطائرة المتوجهة إلى تكساس، عادت ستيفي أدراجها إلى وادي البساتين... ومع مرور كل دقيقة كان تلهفها للوصول إلى البيت يزداد.

فقد زرعت ڤاليري بذور الشك فيها، وسارت في طريقها، تاركة ستيفي تواجه المصاعب وحدها.

ولكن ما أن أوقفت ستيفي سيارتها أمام البيت، حتى تبددت مخاوفها. فقد وجدت والدها جالساً كعادته على كرسيه على الشرفة، وعندما شاهدها ابتسم ولوح لها بيده.

قالت له وهي تخرج من السيارة: «مرحباً يا عزيزي، كيف أمضيت يومك؟».

ـ تسليت كثيراً بعد الظهر، وأظن أن أيامي كلها ستكون رائعة من الآن فصاعداً، إذ لدي أسباب وجيهة للعيش. أوه... قبل أن أنسى، لقدعرّج تشارلز لزيارتك.

لمعت عينا والدها ببريق غريب وهو يتابع: «أظنه ينتظر منك أن تتصلي به».

تسمرت ستيفي مكانها، وقد استفاقت شكوكها لتعذبها ثانية: «لا أظنك قلت له شيئاً حول... ما تناقشنا به... أليس كذلك؟».

ـ لم أتلفظ بأي كلمة قد تؤذيك يا أميرة.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ حتماً.

دخلت ستيفي إلى المنزل وقد أعاد تأكيد والدها الطمأنينة إلى قلبها، فوجدت نورا في المطبخ منشغلة بتحضير عجينة الخبز.

سألتها ستيفي وهي تتجه نحو الثلاجة لإخراج شراب بارد: «هل رأيت تشارلز؟».

- جاء منذ بعض الوقت وتحدث مع أبي، ولكنه لم يمكث هنا غير ربع ساعة.

احتست ستيفي الشراب البارد ثم قالت: «سأتصل به».

- يخيل لي أنها فكرة جيدة.

صعدت ستيفي إلى غرفتها وجلست على السرير ثم أخذت الهاتف وطلبت رقم تشارلز، الذي لم تنسه رغم مرور سنوات طويلة منذ اتصالها الأخير به.

خيل إليها أنه كان جالساً بالقرب من الهاتف لأنه رد عليها من الرنة الأولى.

حيته بابتهاج: «مرحباً تشارلز، قال لي أبي إنك مررت بنا».

- نعم، هذا صحيح.

جاءها صوته بارداً، فشعرت ستيفي بالارتباك وهي تسأله: «ما بك؟ ما الخطب؟».

- يمكنك القول إنني أشعر بالخيبة، اعتقدت أنك تغيرت ونضجت وكففت عن الألاعيب الساذجة... ولكنني كنت على خطأ، أليس كذلك؟.

***

٩ - وضاعت الآمال...

هرعت ستيفي إلى الشرفة الأمامية، وهي تنادي والدها، محاولة أن تكبح غضبها والضيق عن صوتها: «أبي! لقد قلت لي.. لقد وعدتني...».

ترددت ثم أردفت: «ماذا قلت لتشارلز؟».

رفع والدها نظره إليها، وهو في حيرة من أمره: «لا شيء يذكر... لا داعي للقلق... وهل ذلك مهم؟».

- طبعاً، يجب أن أعرف.

بذلت جهداً كبيراً لتضبط أعصابها ولا تصرخ في وجه والدها مطالبة بتوضيح. وكم كانت ترغب بأن تعاتبه لأنه لم يأبه لتوسلاتها وصمم على القيام بما يريده.

- تبدين مضطربة يا أميرة.

- طبعاً وأنت تعرف السبب.. أخبرني بما قلته لتشارلز.

- اجلسي قليلاً لنتحدث.

فعلت ستيفي ما طلبه منها والدها، وجلست على درج الشرفة بالقرب من كرسيه، وأسندت ظهرها إلى العمود الأبيض.

- جاء تشارلز لرؤيتك بعد الظهر، صح؟

- نعم، وتبادلنا حديثاً ودياً... حاول أن يقنعني أنه جاء لزيارتي، ولكنني قرأت في عينيه عكس ذلك.

ابتسم والدها وأخبرها بكل ما كانت تسعى لمعرفته، فأعماها الغضب لثانية واحدة، أدركت خلالها أن أباها أشبه بعنكبوت يتحين الفرص ليوقع ضحيته في شبكته.

أجبرت نفسها على ألا تصرخ أو تزمجر في وجه رجل خرج حديثاً من المستشفى، ثم قالت: «من الواضح أنني كنت محور هذه المناقشة، أليس كذلك؟».

هز والدها كرسيه عدة مرات ثم أومأ برأسه: «لقد تحدثنا عنك».

أغمضت ستيفي عينيها وقد بلغ منها الاستياء مبلغاً: «فهمت. ما الذي توصلتما إليه في نهاية المطاف؟».

ـ دعيني أخبرك بما قاله تشارلز.

تضرعت إلى الله أن يعطيها الصبر، وهي تسأله: «ماذا قال؟».

ـ حسناً، ادعى تشارلز أنه جاء لزيارتي، في حين كلانا يعلم أنه جاء لمقابلتك، فجاريته لبعض الوقت، ثم سألته بصريح العبارة عن نواياه نحوك، وقلت له إنني كنت أتوقع أن أراك تضعين خاتم الخطبة.

قفزت من مكانها دون أن تعي ما تفعل وهي تهتف: «أبي! لقد خنت ثقتي! حسبتك ستحافظ على كلمتك ولا تتبس ببنت شفة أمام تشارلز في هذا الشأن... ألا تعي ما الذي فعلته؟».

وللمرة الأولى، بدت عليه المرارة وهو يقول: «لقد فعلت ذلك لأنني أحبك يا أميرة».

ـ أوه يا أبي... لقد عقدت الأمور.

سألها وقد عادت ابتسامته مشرقة: «ألست مهتمة بما قاله؟ حسناً، عودي إلى حيث كنت تجلسين ودعيني أخبرك».

ـ حسناً.

غمغمت بذلك وهي تجلس على درج الشرفة وساقاها ترتجفان من الهلع.

ـ بدا تشارلز أكثر اهتماماً بطرحي هذا السؤال بدلاً من الإجابة عليه. بصراحة، يا أميرة، لم يكن مسروراً مني.

ـ أنا لا أستطيع أن أصدق حتى أنه رد على سؤالك.

ـ لقد فعل. وقال إن مسألة الزواج لا تخص أحداً سواكما... وأظنه محق.

ـ ما كان عليك أبداً أن تناقشه في مسألة زواجنا.

ـ حسناً يا أميرة، ظننت أنه سيتقدم بطلب يدك. كما وأني لا أريد أن يغدر تشارلز بك، أو يجرح مشاعرك مرة أخرى.

ـ لكنك جعلت ذلك مستحيلاً و..

ـ دعيني أنهي كلامي، فثمة المزيد.

ولكنه بعد أن أسكتها، لزم الصمت بدوره.

حثته وهي تصر على أسنانها: «هات ما عندك».

ـ كنت أحاول أن أجد الطريقة الملائمة لأخبرك هذا من دون أن أزعجك أكثر. لقد أخبرت تشارلز شيئاً لا تريدينه أن يعرفه.

سألته بصوت هامس: «الحلم؟ ولكنك قلت إنك لم تخبر تشارلز شيئاً لا أريده أن يعرفه، وقبل ذلك.. وعدتني ألا تأتي على ذكر مسألة الزواج!».

ـ لا يا أميرة، أنا لم أعدك أبداً... لقد قلت لك إني سأفكر ملياً. ولكن لا داعي للقلق... لم أخبره شيئاً عن حديثي مع والدتك، أو عن الأطفال الثلاثة الذين ستنجبانهما يوماً ما.

ـ وماذا كان رده؟

ثم عادت وغيّرت سؤالها: «لا، أخبرني أولاً ماذا قلت له بالضبط».

ـ حسناً، كنا نتبادل الحديث..

ـ اختصر الكلام وحدثني عن موضوع الزواج.

ـ حسناً، حسناً. ولكن اعلمي أنني لم أخبره شيئاً عن الحلم. ليس لأنك لا تريدين ذلك، ولكن لأنني لا أظنه سيصدقني، فإن كانت بناتي تجدن صعوبة في ذلك، فلا أتوقع من شخص غريب أن يصدقني.

ـ هل أخبرت كولبي عن حلمك؟

ـ بالطبع. فهو طبيبي، وينبغي أن يعرف كل شيء عني.

ـ عظيم. بعبارة أخرى قلت لتشارلز بأنك تتوقع منه أن يتزوجني، لأنك لا تريده أن يغدر بي.

ـ ليس تماماً. لقد سألته عن نواياه حيالك، فأجاب بأن هذا الأمر هو من شأنكما، أنتما الاثنين.

ارتاحت ستيفي قليلاً وتمتمت وهي تأمل أن يكون حديثهما قد انتهى عند هذا الحد: «جيد، أهذا كل شيء؟».

ـ ليس تماماً.

ـ ماذا بعد؟

ـ لقد أخبرته أنك تتوقعين مثلي أن يتقدم لخطبتك.

صرت ستيفي على أسنانها كي لا تصرخ بملء صوتها وقد ثارت ثائرتها. كان هذا أسوأ مما كانت تخشاه... ليته أخبر تشارلز عن الحلم فلعله كان سيتفهم الأمر.

كان تشارلز غاضباً منها، فقد بدا ذلك جلياً من حديثه معها على الهاتف إذ رفض أن يناقش معها التفاصيل واكتفى بترداد عبارة: «لقد خيبت ظني».

لا بد أنه يظن أنها دفعت والدها ليتحدث معه بموضوع الزواج. وليس من المحتمل أن يغير رأيه إلا إذا استطاعت أن تقنعه بالحقيقة.

سألها والدها بعد أن تركته لبعض الوقت لتعود بعدها وهي تنابط سترتها وحقيبة يدها: «إلى أين تذهبين؟».

ـ لأتكلم مع تشارلز وأوضح له الأمور.

اتسعت ابتسامة دافيد وهو يقول: «عظيم.. أظن أن هذه المبادرة هي كل ما يحتاج إليه تشارلز. وحالما تعودين من عنده ستشكرينني لأني توليت أمر هذه المسألة».

لم يكن بوسع ستيفي الاستمرار بصب جام غضبها على والدها. فهو تكلم مع تشارلز عن حسن نية، ولم يكن على علم بما حصل بينهما منذ ثلاث سنوات، والألاعيب التي أقدمت عليها. ولهذا لم يكن بوسعه أن يفهم سبب انفعال تشارلز عند طرحه مسألة الزواج عليه.

قال مقترحاً: «سأكون بانتظارك، وسنحتفل عندما تعودان معاً إلى البيت».

ابتسمت ستيفي بوهن وهزت برأسها... ولكنها لم تجد أن المسألة قد تدعو للاحتفال.

* * *

قادت سيارتها نحو البلدة بتمهل، واستغلت هذه الدقائق لتستعيد رباطة جأشها. وأملت أن يمنحها تشارلز الفرصة لتوضح له الأمور. فأكثر ما تريده هو أن تقنعه بأنها لم تحث والدها على فتح موضوع الزواج معه. فخلال الأسابيع الأخيرة، شهدت علاقتهما تحسناً ملحوظاً ولا تريد ستيفي أن يفسد أي شيء الأمر عليها.

بدا لها وكأن تشارلز كان بانتظارها، فحالما قرعت الجرس، فتح لها الباب.

فوجئت بظهوره الفوري، فحيته ثم قالت: «اعتقدت أنه من الأفضل أن نجلس ونتحدث».

لم يبتسم أو يحاول التظاهر بسروره لرؤيتها، بل أجاب ببرودة: «لا بأس».

تعثرت الكلمات على لسانها وهي تقول: «أخبرني أبي أنه تحدث معك حول.. موضوع زواجنا».

رد عليها بنبرة جافة: «لقد ذكر شيئاً من هذا القبيل».

لم يطلب منها أن ترتاح أو أشار عليها بالجلوس، بيد أنها لم تعر الأمر اهتماماً، خاصة وأن رجليها كانتا ترتجفان من شدة اضطرابها. دخلت إلى غرفة الجلوس، فشعرت ببرودة مفاجئة مع أن الطقس ربيعي دافىء.

ـ تظن أنني دفعت والدي إلى هذا، أليس كذلك؟

أجابها بصراحة: «نعم».

لبث في مكانه دون حراك، فيما كانت هي تطوف في الغرفة، على غير هدى. لم تكن ملامح وجهه تدعو إلى التفاؤل. ربما من الأفضل لها أن تؤجل هذا اللقاء إلى وقت لاحق، أو تتخلى كلياً عن فكرة التحدث إليه، وتدع سوء التفاهم هذا يزول مع مرور الوقت أو لعله يستحسن بها أن تعود إلى البيت حالاً قبل أن تزداد الأمور سوءاً.

أخبرته بكل بساطة: «لم أطلب من أبي أن يقول لك أي شيء».

ـ ليتني أستطيع أن أصدق كلامك.

ـ ولمَ لا؟ هذا سخيف... لا أظنك تريد معاقبتي على ما حدث منذ ثلاث سنوات.

ـ أنا لا أتكلم عمّا ما حدث منذ ثلاث سنوات، أنا أتكلم عما يحدث هنا الآن.

ـ ماذا تقصد بذلك؟

ـ أعترف يا ستيفي... بأنك أصبحت أكثر مكراً من ذي قبل.

ـ كيف.. ماذا تعني؟

ـ ركنت سيارتك أمام مكاتب الصحيفة، في الوقت نفسه الذي كنت..

ـ متى؟

ـ الأسبوع الماضي. كنت أتحدث مع ويندي، ورأيتك تجلسين في سيارتك، تحدقين إلينا. أخبريني كم من الوقت أمضيت تحدقين إلينا؟

ـ أنا.. لا أعرف.

ـ حين أستعيد ذلك في ذهني، أدرك مدى غبائي. لقد كنت تتجسسين عليّ لأسابيع طويلة، أليس كذلك؟

وجدت ستيفي نفسها تضحك مستنكرة لشدة غرابة هذه الفكرة... لم يعد لكلامها أهمية طالما أنه مؤمن بما قاله الآن.

أجابته بتهكم: «لا مجال للخداع، أليس كذلك؟ فأنت أذكى مني بكثير يا تشارلز... كنت أتجول خلسة في البلدة وألاحقك بالمنظار... وأتابع نشاطاتك. من المذهل أنك لم تكتشف ذلك من قبل».

تجاهل سخريتها وأضاف: «لقد أحسنت صنيعاً حين لويت كاحلك ذاك اليوم، فقد تدبرت أمرك جيداً لتسقطي بين ذراعي».

ردت عليه وهي تضحك بمرارة: «كان التوقيت ممتازاً، أليس كذلك؟ أنت على حق، لم يكن باستطاعتي أن آتي بخطة أفضل من هذه».

عبس وهو يجيبها: «والعشاء الذي كان ينتظرني في البيت تلك الليلة... والوجبة الإيطالية الشهية أيضاً المعدّة على طريقة جدتي».

ـ أليس مدهشاً أنني عرفت ذلك؟

ـ وكل هذا يؤدي إلى نتيجة واحدة.

سألته بنبرة حادة وهي تضم ذراعيها إلى صدرها وتشمخ برأسها: «وما عساها تكون هذه النتيجة؟».

كم من آمال عقدتها على علاقتها بتشارلز... فتخلت عن حذرها وآمنت فعلاً أنه يبادلها مشاعر الحب نفسها. وها هي الآن، تدرك كم كانت مخطئة.

ـ أرى أنك عدت إلى ألاعيبك ثانية.

ـ لا تنسى أيضاً ضوء القمر ليلة تناولنا العشاء في مولتنوما فولز. أعترف بأن ذلك تطلب مني بعض الجهد... ولكنني ماهرة في هذه القضايا.

- لا داعي للتهكم.

- أنا لا أوافقك الرأي.

ازداد عبوس تشارلز وغمغم بشيء لم تستطع أن تفهمه.

- يدهشني أنك أدركت الوضع بهذه السرعة، باعتبار أنني في نظرك ماكرة ومتحفظة.

- دعينا نوضح الأمور.

أجابت وهي تلوح بذراعيها بعصبية: «ولكن الأمور واضحة».

عرفت أن هذا الجدال لن يجدي نفعاً... ولكنها شعرت بنفسها عاجزة عن كبح جماح اندفاعها، فأردفت تقول: «لقد كشفت أمري، وانتهى كل شيء بيننا».

- انتهى؟

- طبعاً، ولا داعي للتظاهر بعد الآن.

- عمّ تتحدثين؟

- الانتقام... ليتك لم تكشف أمري الآن، كنت أريد أن أروي غليلي.

- ما الذي كنت تنوين القيام به؟

- أتعني أنك لم تستنتج ذلك بنفسك؟

استحالت نبرة صوته قاسية وباردة وهو يقول: «أخبريني يا ستيفاني».

- لا بأس، إذا كنت مصراً... فبعد أن أقنعك بطلب يدي..

توقفت عن الكلام لبرهة ثم أضافت: «... أسخر منك وأرفض طلبك. ففي الماضي أهنتني وسخرت مني، وقد حان الآن دوري للانتقام منك، غير أنك كشفت أمري..».

ازداد تجهم وجهه: «والدك..».

- أوه، لا تقلق، فهو لا يعرف شيئاً عن نواياي. كان من الصعب عليّ إقناعه بفتح موضوع الزواج معك، ولكنني قلت له إنني أخشى أنك تعبث

بعواطفي.

أطلقت تنهيدة مبالغ بها، وهي مندهشة لأنه صدق الهراء الذي تلفظت به.

- فهمت.

- لقد برهنت أنك أكثر ذكاء مني يا تشارلز. ولم يعد هنالك من ضرورة للتظاهر أكثر من ذلك.

- أظن أنه من الأفضل أن تغادري الآن.

- إنك على حق. حسناً، أظنك أصبحت تعرف الآن ما يشعر به المرء عندما يتعرض للسخرية.

سار تشارلز نحو الباب الأمامي ووقف ممسكاً به بعد أن فتحه. فخرجت ستيفي بخطى ثابتة وهي تقول: «حسناً، أراك لاحقاً، ولكن لا داعي للقلق... فلن أتجسس عليك بعد الآن».

أطبق فكيه بشدة، فأدركت ستيفي أنها حققت نجاحاً غير متوقع. لقد اشمأز منها وثارت ثائرته عليها، فبات متلهفاً لإخراجها من بيته.

قالت وهي تمر أمامه: «لا يمكنك لومي أبداً».

فكانت ردة فعله أن صفق الباب بقوة وراءها.

كانت ستيفي ترتعش بصورة فظيعة، عندما صعدت إلى سيارتها حتى أنها بالكاد استطاعت أن تدخل مفتاح المحرك مكانه.

لم يبلغ الغضب منها يوماً هذا المبلغ. فقد أدركت في قرارة نفسها أنه من الخطأ أن تخبره تلك الأكاذيب السخيفة.

ولكن الأسوأ هو أنه صدقها، وتوافقت مع طريقة تفكيره... وبالنسبة لستيفي لم يعد هناك ما يقال.

لا شك أنها مع الوقت ستندم على ما فعلته... ولكن وفي تلك اللحظة كانت غاضبة إلى درجة أنها لا تأبه لشيء أبداً.

***

- إذن؟

سألها والدها، وقد ظهرت على وجهه ملامح الرضى: «هل ستبدآن بالبحث عن خاتم الخطوبة في الأيام القليلة القادمة؟».

ردت ستيفي وهي تتجه إلى غرفته: «ليس تماماً».

كما وعدها قبل مغادرتها، بقي والدها بانتظارها وهو يجلس على مقعده المفضل ويطالع كتاباً.

علت الخيبة وجهه: «ولكنكما تحدثتما في مسألة زواجكما، أليس كذلك؟».

- ليس تماماً.

- هل تجادلتما؟

- ليس فعلاً.

لم تكن ستيفي تعرف ما عليها أن تقوله لوالدها. فقد خشيت أن يلاحظ مدى الهوة التي أصبحت بينها وبين تشارلز، فيشعر بأنه ملزم بإصلاحها.

وضع دافيد نظاراته الطبية وحدق إليها: «هل ستقابلينه قريباً؟».

لا شك أن بقاءها في وادي البساتين يجعل ذلك محتملاً. ولهذا السبب بالذات اختارت أن تتابع دراستها في إيطاليا لثلاث سنوات خلت: «من الطبيعي أن أقابله».

أومأ دافيد برأسه قائلاً: «عظيم».

- سأصعد إلى غرفتي وأطالع قليلاً. ليلة سعيدة يا أبي.

- ولك أيضاً يا أميرة.

التفت ستيفي بنورا عند أعلى الدرج، فرمقتها شقيقتها الصغرى بنظرة ثاقبة ثم سألتها: «ما الذي أصابك؟».

- ما الذي يدفعك لطرح هذا السؤال؟

- أتقصدين أنك لست متلهفة لدخول غرفتك والاسترسال للبكاء؟

كانت شقيقتها تعرفها جيداً... أحست ستيفي بالاكتئاب والقنوط، ولكنها لم تكن في حالة تسمح لها بشرح ما حدث بينها وبين تشارلز.

وبدلاً من الإجابة، سألت شقيقتها وهي تتظاهر بالغبطة: «ما الذي يمكن أن يصيبني؟».

قالت نورا: «من المضحك أن تقولي هذا».

دست ذراعها تحت ذراع ستيفي ورافقتها إلى غرفتها: «طرحت قاليري عليّ السؤال ذاته تقريباً، من وقت ليس ببعيد وأرى أنني مضطرة لإعطائك الإجابة نفسها وأقول إنك ربما تواجهين بعض المشاكل مع رجل».

- كم أنت ماكرة.

لم تتأثر نورا بتهكم ستيفي الخفيف: «من الواضح أن الأمر يتعلق بتشارلز».

- طبعاً.

كانت متعبة جداً وتتوق إلى الاسترخاء في حمام ساخن معطر، قد يساعدها ذلك على إعادة تنظيم أفكارها.

- هل حدث شجار بينكما؟

- ليس تماماً... اسمعي يا نورا، أنا أقدر اهتمامك، ولا أقصد أن أكون ناكرة للجميل... ولكنني مرهقة وأريد الخلود إلى الفراش.

- الفراش؟ يا إلهي، لم تبلغ الساعة السابعة بعد.

- كان يومي طويلاً.

رمقتها نورا بارتياب: «لا شك أنه كان كذلك».

- علاوة عن أنه لدي مواعيد كثيرة نهار الاثنين.

فردت عليها نورا بفضول: «ما الذي يحدث إذن».

- سأذهب إلى بورتلاند لأستعلم عن طلب الالتحاق بالجامعة وأبحث عن شقة.

لزمت نورا الصمت لحظة، ثم نطقت وعلى وجهها سيماء الذهول: «ولكنك قلت لأبي إنك ستؤجلين ذلك».

ـ كنت سأفعل..

ـ وهل عدلت عن رأيك؟ حتى بعد أن وعدت أبي بذلك؟

أشاحت ستيفي بنظرها بعيداً حتى لا تلاحظ شقيقتها مدى عمق جرحها، بعد أن ظن تشارلز أنها مخادعة تحاول الاحتيال عليه ليتزوجها. أليس صحيحاً أنه كلما تعلق الأمر بتشارلز توماسيللي، تعاني في نهاية المطاف الأمرّين؟

***

حيا دافيد ستيفي بانشراح في صباح اليوم التالي: «أشعر أنني بأفضل حال».

كان يجلس إلى طاولة المطبخ يحتسي القهوة ويتصفح صحيفة يوم الأحد. رحب بها بابتسامة دافئة، من دون أن يلاحظ مزاجها السيء ثم أردف قائلاً: «إنه صباح جميل».

ـ نعم.

تمتمت ستيفي فيما كانت تصب لنفسها كوباً من القهوة. كانت عيناها متورمتين بعد أن جافاها النوم وشهدت لحظات عصيبة خلال الليل.

فقد بقيت حتى الفجر تقلب في ذهنها الأكاذيب التي قالتها لتشارلز. واستطاعت في النهاية أن تقنع نفسها بأن ما فعلته كان تصرفاً صحيحاً... لأن تشارلز أراد أن يصدق كل كلمة تفوهت بها.

سألها والدها: «في أي ساعة سيأتي تشارلز؟».

ـ تشارلز؟

رددت اسمه وكأنها لم تسمع به من قبل.

ـ حسبت أنكما ستذهبان بنزهة على الخيل، بعد الظهر.

ـ آهه.. لا أظن أن تشارلز سيتمكن من الحضور.

لا بد أنه نسي هذا الموعد، كما هي نسيته، وحتى وإن تذكره... فمستحيل أن يأتي. في الواقع، كلما استعادت في ذهنها مشاجرتهما الأخيرة، ازداد غضبها. فإن صدق فعلاً ما تفوهت به فلم يعد إذن من أمل لهما.

قالت ستيفي بنبرة باردة: «من الأفضل أن أرتدي ملابسي للذهاب إلى الكنيسة».

ـ ما زال الوقت مبكراً.

ـ يجب أن تصل نورا إلى هناك باكراً.

كانت شقيقتها عضواً في جوقة الكنيسة، وقد اعتادت أن تغادر البيت باكراً. ولكن ستيفي أرادت أن ترافقها هذا الصباح للتهرب من أسئلة والدها. فمن النظرات التي كان دافيد يرمقها بها، بدا لها أنه سيخضعها لتحقيق مفصل حالما تسنح له الفرصة.

شعرت بالارتياح في الكنيسة. خلال تلك الساعة، استطاعت أن تنسى متاعبها وتستعيد هدوءها. ولكن ما إن وصلت في السيارة إلى فناء البيت حتى تملكها الاضطراب.

كانت سيارة تشارلز متوقفة أمام المنزل.

تشنجت ستيفي وأطلقت تنهيدة طويلة.

سألت نورا: «هل من مشكلة؟».

ـ لا أعرف.

ـ هل تريدين التكلم معه؟

أجابت ستيفي على الفور: «لا... لا أريد التحدث معه».

ولكن في الوقت ذاته، لم تكن مستعدة للتراجع. فهي لن تسمح لتشارلز بأن يطاردها إلى منزلها... إنها الآن في ميدانها، ولن تهرب بسهولة.

ركنت ستيفي سيارتها خلف سيارة تشارلز، وأرغمت نفسها على التحلي برباطة الجأش. لا بد أن والدها سمع هدير السيارة، فقد خرج من البيت وعلى وجهه ابتسامة ترحيب.

- ستيفي، تشارلز هنا.

ردت بلامبالاة: «لاحظت ذلك».

- إنه بانتظارك في الأسطبل.

أومأت برأسها وصعدت الدرج فيما كان قلبها يخفق بشدة بين ضلوعها، ثم قالت: «أحتاج إلى تبديل ملابسي أولاً».

- ولكن..

تردد في الكلام ثم أومأ برأسه على مضض.

لما وصلت ستيفي إلى غرفتها، كانت ترتعش. كانت عواطفها تتضارب بقوة فلم تعد تعرف ما إذا كانت ترتجف من الغضب أم من توتر أعصابها. ولكنها أدركت أنها ليست مستعدة لمواجهته، أو لسماع اتهاماته. جلست لبضع دقائق على سريرها وهي تحاول أن تتخذ قراراً في ما ستفعله.

وقفت نورا عند باب الغرفة وهي تراقبها وقد ظهر عليها القلق: «ستيفي.. هل أنت على ما يرام؟».

ردت: «طبعاً أنا.. لا، أنا لست على ما يرام، لست مستعدة بعد للتحدث إلى تشارلز».

- لا شيء يرغمك على القيام بذلك. سألفق له حجة ما وأرسله على أعقابه.

- لا.

إذ لم تكن تريده أن يعرف مدى الأذى الذي ألحقه بها في المرة الأخيرة.

- تبدين وكأنك على أهبة الانفجار في البكاء.

وقفت ستيفي ونظرت إلى شقيقتها التي ترمقها بقلق: «لن أسمح له بالاستمتاع بالفوز».

ردت نورا باستحسان: «هيا يا فتاة».

بدلت ستيفي ملابسها وارتدت سروال جينز وقميصاً قطنياً، ونزلت إلى المطبخ. لم تتوقع أن تجد تشارلز جالساً إلى الطاولة يتحدث مع والدها. فاجأتها رؤيته خاصة وأنه لم يظهر عليه ما يشير إلى خصامهما. أبطأت ستيفي الخطى وهي تدخل.

توقف تشارلز عن الحديث وضاقت عيناه لفترة وجيزة ثم قال: «مرحباً، ستيفاني».

قال والدها قبل أن تتمكن ستيفي من الرد على تحية تشارلز: «سأترككما لوحدكما».

ثم نهض بشيء من الصعوبة واتجه نحو الباب: «أعتقد أن لديكما كلام كثير».

أرادت ستيفي أن تحتج، ولكنها لاحظت أن لا جدوى من ذلك. واكتفت بهز كتفيها بلامبالاة وتسمرت مكانها على بعد خطوات من الدرج الخلفي. طالت فترة الصمت بينهما فلم يعد باستطاعتها تحمل المزيد.

قالت بنبرة قاسية: «لم أتوقع منك أن تأتي، ولا أرى من داعٍ لهذه الزيارة».

- أنا أدرك ذلك.

- أنا لست في مزاج لركوب الخيل وأظنك توافقني الرأي.

- لم آتِ إلى هنا لأمارس ركوب الخيل.

- لماذا جئت إذن؟

لم يكن تشارلز مضطراً إلى الإجابة، لأنه نهض وسار نحو النافذة. ووقف هناك عدة دقائق من دون أن ينبس بكلمة.

سألته مرة ثانية، وهي مستعدة لأن تطلب منه الرحيل: «لماذا أنت

هنا؟».

استدار وقال: «لم أستطع النوم طوال الليل».

أبت ستيفي الإقرار بأن حالها لم يكن أحسن من حاله، فارتأت ألا تعلق على كلامه.

تابع تشارلز كلامه: «فكرت بما قاله والدك وبما أخبرتني به».

أبت عليها الكبرياء أن تبادله النظرات، أو أن تكشف له أن الجواب على سؤالها يعني لها الكثير: «وهل وصلت إلى نتيجة؟».

ـ نتيجة واحدة.

حدق إليها بعينين متقدتين، ورغم أن المسافة التي تفصل بينهما طويلة، شعرت ستيفي أنه قريب بما يكفي ليلمسها.

وعاد يقول: «أرى أن والدك متلهف لزواجك وأنت تبدين متلهفة مثله، فلا بأس بذلك».

ـ لا بأس؟

رددت من بعده وكأنه أخبرها نكتة ما، وفاتها الجزء المضحك منها.

رد عليها تشارلز باختصار: «بكلام آخر، أنا مستعد للزواج بك».

***

١٠ ـ لن أخسرك ثانية

رددت ستيفي كلامه: «ماذا؟ الزواج بي؟».

من المؤكد أنه غير جاد. فما من امرأة قد تقبل هذا العرض المهين في طلب الزواج.

ـ سمعت ما قلته.

ـ قل لي إنك تمزح.

هز تشارلز رأسه بالنفي: «لم أكن يوماً أكثر جدية، فأنت ترغبين في الزواج بي، ولك ما تريدين، إنني على استعداد للمضي قدماً، شرط أن يفهم كل منا الآخر..».

ـ في هذه الحالة، أنا أتراجع عن عرضي... وهذا لا يعني أنني عرضت عليك شيئاً، في الأساس.

احتج تشارلز وقد بدا مندهشاً: «لا يمكنك أن تفعلي ذلك، فوالدك يظن أنه علينا أن نتزوج، وأنا أوافقه الرأي».

ـ هذا مؤسف، فطلبك لا يهمني.

ضحك تشارلز بلطف: «كلانا يعرف أن ذلك ليس صحيحاً، فأنت مجنونة بي منذ سنوات».

استدارت ستيفي ثم طوت ذراعيها على صدرها وكأنها تريد أن ترد عنها كلماته: «أنا لا أستطيع الزواج بك، يا تشارلز».

ـ لمَ لا؟ فأنا أعرف أنك تحبينني. لقد قلت لي ذلك قبل أن ترحلي

إلى إيطاليا. ولا أظن أن مشاعرك تغيرت.

- لا تكن واثقاً من ذلك.

- حتى أنك أكدت لي ذلك مؤخراً.

- متى؟

سألت بإلحاح وهي تسترجع في ذهنها الأحاديث التي تبادلاها منذ عودتها إلى وادي البساتين.

- عندما التقينا في محطة ديل بعد ظهر ذلك اليوم.

استرجعت ستيفي في ذهنها هذه الواقعة... فقد تلاقيا صدفة وهما يدفعان ثمن الوقود. تذكرت ستيفي مدى سرورها لرؤيته، ومدى توقها لتسوية الأمور بينهما. ولكنها لم تستطع أن تتذكر أنها قالت شيئاً واحداً قد يدفع تشارلز للاعتقاد أنها ما زالت تحبه.

- أنا لم أقل شيئاً.

- صحيح أنك لم تتفوهي بذلك، ولكن تصرفاتك أوضحت لي أشياء كثيرة... أتذكرين أيضاً ليلة أحضرت لك نبتة الأضاليا، فدعوتني إلى العشاء؟

- نعم، ولكن ما علاقة ذلك بالموضوع؟

- في الواقع... كنت باستمرار تختلقين الأعذار لتتواجد معاً؟

علا الاحمرار وجه ستيفاني وهي تسأله بإلحاح: «وماذا يعني ذلك؟».

تجاهل هذه المرة سؤالها: «قضينا وقتاً ممتعاً ونحن نجول في وادي البساتين، أليس كذلك؟».

أومأت ستيفي برأسها. فهي لن تنسى أبداً تلك الأمسية، لأنها زرعت في قلبها بذور آمال جديدة، آمال بناها خيالها منذ ثلاث سنوات... ولكن من دون أساس متين. لقد استمتع تشارلز برفقتها وضحكا معاً وتبادلا الأحاديث وكأنهما صديقان قديمان.

ذكرها تشارلز قائلاً: «أخبرتني أنك كنت منكبة على الدراسة في إيطاليا ولمّ يتسنّ لك الوقت للخروج مع الشبان».

- ماذا تريد القول؟

- استنتجت من كلامك أنك لم تقعي في حب أي رجل آخر خلال فترة غيابك.

- صحيح، لم أقع في حب أحد.

- في عدة مناسبات، صارحني والدك بقلقه عليك لأنك لم ترتبطي بعلاقة جدية مع أي رجل.

حملقت ستيفي به وهي تشعر بالاضطراب: «أنا لا أعرف ما دخل هذا في الموضوع».

- لقد أحببتني حينها، وما زلت تحبينني الآن.

قالت وهي ترمقه بنظرات شرسة علّه يتركها وشأنها: «يا لوقاحتك يا تشارلز توماسيللي. ما الذي يؤكد لك أنني أحبك الآن؟».

- أنا أعرفك جيداً.

اصطنعت ضحكة خفيفة: «هراء! أنت لا تعرفني على الإطلاق، وإلا لما..».

وتوقفت فجأة عن الكلام.

- وإلا... ماذا؟

- لا شيء..

وإلا لما صدق التفاهات التي قالتها له.

- ألا تعتقدين أن الوقت قد حان لتتوقف عن الألاعيب؟

ردت بحدة: «أي ألاعيب؟ لقد تخليت عنها منذ أمد طويل!».

عبس تشارلز وكأنه يشك في صدق كلامها.

صرخت ستيفي به والغضب والألم يعتصران قلبها: «لهذا السبب، أرفض أن أتزوجك».

بات من المستحيل أن تكبح جماح عواطفها أكثر من ذلك. حتى صوتها أخذ يرتعش عندما قالت بتهكم: «يفترض أن أكون مسرورة لأنك على استعداد للزواج بي، فكل امرأة تحلم بسماع هذه الكلمات الرومانسية. ولكن يا تشارلز توماسيللي، ما أريده في زوجي لا يتوفر فيك».

ـ ماذا تعنين بذلك؟

لم يعطها فرصة الرد إذ استطرد قائلاً: «فهمت... أظنك تخشين أن أعاني من ضيق مالي فلا أقدر على إعالتك».

أذهلت كلماته ستيفي، أذهلتها وأهانتها. فسألته بلهجة تأنيب شديدة: «تقول إنك تعرفني جيداً، أليس كذلك؟ أتحاول أن تخدعني؟».

أخذت نفساً عميقاً وقالت: «من الأفضل أن تغادر البيت».

عبرت المطبخ وفتحت له الباب الخلفي وأضافت: «حالاً».

عبس تشارلز وهز رأسه نفياً، وقال وهو يسحب كرسياً ويجلس عليه: «أنا آسف، علينا أن نبت هذا الموضوع في الحال».

ـ كم أنت عنيد!

ـ وأنت كذلك.

ـ إننا ثنائي فظيع.

ـ نحن نشكّل فريقاً جيداً.

لم تعرف ستيفي السبب الذي دفعها للشجار معه بهذه الحدة، خاصة وأنه يتفوه بكلمات لطالما حلمت بسماعها منه.

قال لها ببطء: «أعرف أنني أخطأت ولم أتقدم لطلب يدك بطريقة لبقة».

وافقته قوله بتحسر: «إنك تفتقر إلى حس الرومانسية».

توجهت نحو خزانة المطبخ لتأخذ كوباً وتملأه بالقهوة. فإن أرادا أن يتناقشا بجدية، ومن غير أن يتبادلا الاتهامات، فسوف تحتاج إلى كوب من

القهوة.

ـ كنت غاضباً.

سألته، فيما كانت تجلس على كرسي قبالته: «لمَ جئت إلى هنا؟».

أجابها بصوت غاضب وهو يصر على أسنانه: «لأنني.. خشيت أن أفقدك مرة ثانية».

لم تفهم ستيفي كلامه: «تفقدني؟».

رد مزمجراً: «خشيت أن تعودي إلى إيطاليا أو تسافري إلى بلاد مجهولة، لا أعثر فيها عليك».

ـ سأنتقل إلى بورتلاند، ولكن ليس بسبب ما جرى بيننا، بل لأنني عازمة على ذلك منذ لحظة وصولي.

أمسكت كوب القهوة بيديها وسألت: «لمَ أنت مهتم برحيلي؟».

ـ لأنني لا أريدك أن ترحلي ثانية.

ـ لماذا تريد مني البقاء، خاصة بعد أن صدقت الأشياء التي أخبرتك بها البارحة؟

تعانقت نظراتهما: «أنا لا أصدق ما قلته».

ـ لكنك أعطيتني انطباعاً مختلفاً.

اجتاحتها موجة جديدة من الألم فأشاحت بوجهها.

ـ هذا لأني كنت غاضباً.

ـ لكن شيئاً لم يتغير.

رد موافقاً: «هذا صحيح، ولكن لا أريدك أن ترحلي ثانية».

ـ لا يحق لك أن تملي عليّ ما يجب أن أفعله.

عبس تشارلز: «أنت غاضبة الآن».

ـ أتظنني متلهفة للزواج إلى درجة أن أقبل طلبك المهين؟

صرخ بها: «لا! تباً، أنا أحبك ولطالما أحببتك. كان عليّ أن أمنعك من الرحيل لأنني لا أريد أن أنتظرك ثلاث سنوات أخرى لتعودي إلى

صوابك».

ساد الصمت بينهما للحظات. . أخفضت ستيفي بصرها إلى كوب القهوة الذي تحمله، والدموع تترقرق في عينيها: «أنا آسفة، ولكنني لا أصدقك».

نهض تشارلز فجأة واتجه نحو النافذة ويداه معقودتان خلف ظهره، ثم قال: «إنها الحقيقة».

مسحت الدموع عن وجهها: «هذا غير صحيح. . . لقد كنت. . . كنت. . .».

أكمل قائلاً: «. . . قاسياً. . . لن تعرفي أبداً كم كان صعباً ألا أنجرف معك ذلك اليوم في الاسطبل، فما من امرأة أغرتني إلى هذا الحد».

ردت عليه بصوت خافت غير مصدق: «أنا. . أغريتك؟».

استدار نحوها وابتسم ابتسامة حزينة ومليئة بالتردد والندم: «أنا أذكر يوم بدأت تترددين على الصحيفة. فقد سرني اهتمامك بي، ووجدت نفسي بعد مضي وقت قصير أتطلع بلهفة لزياراتك. . . كنت سريعة البديهة وطيبة النفس وتعطيني ملاحظات ذكية حول ما ينشر في الصحيفة. . . وسرعان ما اكتشفت أنك لست مجرد وجه جميل فحسب».

غمغمت وهي تسخر من نفسها: «لم أجهد قط في حياتي للتأثير على أي شخص مثلما فعلت معك».

لم تأخذ العودة إلى محور النقاش طويلاً: «إذا كان هذا شعورك، لماذا طلبت مني أن أتوقف عن المجيء؟».

ـ لم أشأ الاستسلام لمشاعري. حينها كنت شابة وساذجة وضعيفة فقدت والدتها منذ فترة قصيرة. وبقيت عدة أسابيع حائراً في أمري وأنا أحاول اتخاذ قرار بشأنك. . . خاصة وأنني كنت أكبرك بست سنوات.

ـ ولكن فرق العمر ما زال هو هو.

ـ هذا صحيح، ولكنك ما عدت فتاة صغيرة.

احتجت قائلة: «ولكنني كنت في الواحدة والعشرين من العمر».

ـ ولكنك كنت تشهدين تغيرات كثيرة في حياتك، ولم أكن واثقاً مما إذا كان شعورك نحوي حب أم افتتان مراهق.

أغمضت ستيفي عينيها وقالت له بنعومة: «كان حباً».

حب ازداد قوة خلال السنوات التي افترقا فيها عن بعضهما البعض.

ـ لعل ما سأقوله لك لا يعني لك الكثير الآن، ولكن أريدك أن تعرفي كم عانيت ليلة عدت إلى المنزل ووجدتك في الحمام.

ـ ولكنك غضبت مني.

ـ لم يكن أمامي خيار آخر حتى لا أجرك إلى سريري.

بقيت ستيفي حائرة: «لكنك ضحكت مني عندما أخبرتك عن مشاعري نحوك، ذلك اليوم في الاسطبل».

رد عليها ببساطة، والندم باد في صوته: «ودفعت ثمن ذلك غالياً. ولكن لم أتخيل أبداً أنك قد ترحلين عن وادي البساتين».

ـ ماذا كنت تتوقع مني؟ فبقائي كان مستحيلاً.

مد تشارلز يده لها، وشبك أصابعها بأصابعه: «لن أنسى ما حييت اليوم الذي علمت فيه أنك سافرت إلى أوروبا».

رددت من غير داع: «كان عليّ أن أرحل، لأن البقاء هنا مؤلم».

شد أصابعه حول أصابعها: «أعرف ذلك».

رفع يدها ببطء إلى شفتيه وهو يقول: «لقد انتظرت ثلاث سنوات طويلة لأخبرك كم أنا آسف لأنني جرحت مشاعرك. . . ثلاث سنوات لأخبرك أنني أحبك».

حاولت ستيفي من دون جدوى أن تمنع دموعها.

ـ لو التقينا في ظروف مختلفة، لأدركت أنك لا تحاولين استبدال حبك لأبيك بحبك لي، ولكنك كنت فتية، وبريئة، ولم أكن أثق بنفسي

وأنا معك.

- كما أنك لم تثق بي.

أوماً برأسه معترفاً: «أنا آسف يا ستيفاني. ولكن أرجو أن تفهمي أن الأمر كان مؤلماً لكلينا معاً».

- لم تكتب لي مرة واحدة طيلة فترة غيابي، حتى أنك لم ترسل لي بطاقة معايدة.

- لم يكن بوسعي أن أفعل ذلك. ثقي أن الفكرة راودتني، ولكنني لم أجرؤ على الاستسلام لهذه النزوة، لأنني لم أكن متأكداً إذا كان ما تشعرين به نحوي هو حب حقيقي أم افتتان مؤقت.

- وهكذا انتظرت؟

- بنفاد صبر. توقعت أن تعودي إلى المنزل ولو لمرة واحدة خلال هذه السنوات.

- خفت أن ألتقي بك ثانية. كنت على بعد آلاف الكيلومترات عنك، ومع ذلك بقيت على حبي لك، واستمريت أحلم بك.

- أنهيت دراستك وكنت على وشك اتخاذ قرار حول مستقبلك في إيطاليا.

- كيف عرفت ذلك؟

- من والدك؟ كنت أتتبع أخبارك من خلاله.

- لقد أخبرني أنك بدأت تزورنا بعد وقت قصير من رحيلي.

- عجيب أنه لم يدرك حقيقة شعوري نحوك.

- لم يكن لديه أي دليل، ولكن مؤخراً..

قطعت حديثها وقد أدركت أنها على وشك أن تخبره الحقيقة.

سألها تشارلز: «ماذا؟».

- من الأفضل أن أدع والدي يوضح لك هذا الجزء.

أشاح وجهه عنها للحظة وهو يقول: «حسناً، سأفعل... قلت إنك

لم تواعدي أي رجل بصورة جدية... ولكن ألم يثر أي رجل اهتمامك؟».

تثاءبت ستيفي حائرة: «من؟».

- رجل يدعى ماريو؟

- ماريو.. رجل؟

ماريو في الرابعة من عمره. وكانت تعتبره بهجة قلبها طوال فترة إقامتها في إيطاليا.

- أتى والدك على ذكره مرة واحدة فقط. وقال إنك تعبدينه ومع أنني حاولت الحصول على معلومات عن هذا الشاب، إلا أن والدك لم يأتِ على ذكره مرة ثانية.

ابتسمت ستيفي ابتسامة عريضة وهي تقول: «ماريو، نعم أنا كنت فعلاً مهووسة به».

رد عليها وهو مقطب الجبين: «وماذا حدث؟».

أجابت ستيفي وهي لا تزال تبتسم: «ولكن ثمة تفاوت بسيط في السن... فأنا أكبره بحوالي عشرين سنة».

- إنه طفل إذن.

- إنه ابن مالكة البيت الذي كنت أقيم فيه... كنت مجنونة به.

استرخت ملامحه وافتر ثغره عن ابتسامة رقيقة وقال: «فهمت، أنت تحبين الأطفال إذاً».

- أوه، نعم.

- أرجو أن يقدر هذا الرجل الصغير العناء الذي سببه لي.

- أنا أقدّر ذلك، لأنني أعرف ما يشعر به المرء عندما يحب شخصاً لا يبادله المشاعر.

أمعن تشارلز التفكير في كلامها لبضع لحظات، قبل أن يقول: «لطالما أحببتك يا ستيفاني، ولكنني لم أجرؤ على مجاهرتك بالأمر.

ولكني الآن أستطيع ذلك».

تجنبت نظراته إليها، هي بحاجة لتسأله، مع أنها تخشى أن تفعل: «إذا كان ذلك صحيحاً، لماذا غضبت عندما اقترح أبي عليك أن نتزوج؟».

تنهد تشارلز: «لعله الإحباط، كنت عازماً على التقدم لخطبتك ليلة خروجنا لتناول العشاء، فخططت لكل شيء، بما فيه أدق التفاصيل».

ـ ولماذا لم تفعل؟

ـ لم أستطع، والماضي يقف حائلاً بيننا. لقد قلت لي إنك لا ترغبين بمناقشة سوء الفهم الذي حصل بيننا. ورغم أني أكره الاعتراف بذلك، ولكنني كنت متوتراً جداً، حتى وإن لم تلاحظي ذلك.

تذكرت قوله: «لقد جعلت من هذه المسألة إحدى أمنياتي».

فشعرت بالندم لأن رفضها مناقشة الماضي كلفها عرض زواج رومانسي من الرجل الذي تحبه. وهذا درس لن تنساه ما حييت.

ـ هذا لا يفسر استياءك الشديد عندما اقترح أبي أن نتزوج؟

بقيت ردة فعله غامضة في ضوء الأشياء التي كان يقولها لها: «يفضل الرجل أن يتقدم بنفسه بطلب الزواج ولا أظن أنه كان باستطاعتي أن أجعل نواياي نحوك أكثر وضوحاً ولكن أنت..».

ـ أنا؟

ـ خشيت البارحة أن أعترف لك بحبي فتسددين لي الضربة القاضية، وتسخرين مني..

ـ أنا.. لم أكن أعي ما أقوله! لقد أغضبتني جداً.

صرخ بها: «أنا أغضبتك؟».

ـ لم أتخيل أنك قد تصدق كل هذه الأكاذيب الملفقة. ولكن لما شعرت أنك صدقتها، ازداد الوضع سوءاً خاصة وأن الأمل ببناء مستقبل معاً بدأ يعشعش في رأسي.

ـ كانت تساورني الأحاسيس نفسها، ولهذا السبب صدمت بشدة.

ـ لم أقصد أن أجرح مشاعرك، يا تشارلز.

التقت نظراتهما، وتلاشى كل شيء من حولهما. كانت ستيفي على وشك الإفصاح عن كل الحب الذي تكنه له عندما سمعت قرعاً على باب المطبخ ثم أطل رأس والدها من وراء الباب: «هل أصبح المكان آمناً؟ فقد بدوتما لي أشبه بقنابل موقوتة على وشك الانفجار».

رد تشارلز وهو يبتسم لستيفي: «المكان آمن».

ـ أرجو أن تكونا قد أوضحتما كل الأمور، لأنني تعبت من الانتظار... ويجب أن تتزوجا قبل نهاية الصيف، فولدك البكر..

قاطعته ستيفي: «أبي، لا أظن أن تشارلز مهتم بمناقشة الموضوع الآن. لمَ لا تدع هذه الأمور لنا».

سأله تشارلز وهو مقطب: «ولدنا البكر؟».

ـ ستنجبان أولاً بتاتاً ثم صبياً ثم بتاتاً أخرى، وسيكون الصبي نسخة عنك يا تشارلز.

نظر تشارلز إلى ستيفي وكأنه يشك في جنون والدها.

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن تخبر تشارلز عن حلمك، يا أبي.

رد بصوت مندهش: «أتقصدين أنك لم تخبريه عنه؟».

سأل تشارلز بنبرة تنم عن حيرته: «ما الذي يجري هنا؟».

أجاب دافيد وهو يسحب كرسياً ليجلس عليه وقد بدت عليه السعادة: «لست أدري ما إذا كنت ستصدقني، ولكنني تنبأت بالمستقبل. إنها هدية من غريس... كانت تريد أن تؤكد لي أنه لدي أسباب للعيش ولهذا..».

ـ ولكن أليست غريس..

ـ إنها في السماء، ولكن قلبي توقف عن العمل لفترة وجيزة... بإمكانك أن تسأل كولبي حول هذا الأمر إن كنت لا تصدقني.

ردد تشارلز: «كولبي؟».

ـ لست واثقاً ما إذا كان يصدقني. ولكن المستقبل سيثبت أنني كنت

على حق. انظر لما جرى مع ڤاليري وكولبي، تماماً مثلما أخبرتني... وأنتما أيضاً. أظنك ستتزوج من صغيرتي، أليس كذلك؟

أكد له تشارلز: «طبعاً».

أضاءت الضحكة وجه والدها: «هذا ما ظننته. أنت تحبينه، أليس كذلك يا أميرة؟».

أومأت ستيفي رأسها وقالت بصوت منخفض: «أحبه أكثر مما تتصور».

ابتسم دافيد متفهماً ونهض عن كرسيه قائلاً: «في هذه الحالة سأترككما لوحدكما لتناقشا تفاصيل زفافكما. أرجو أن تحتفلا به قبل انتهاء الصيف... ولكن سأترك لكما القرار».

ثم خرج من المطبخ.

رددت ستيفي: «قبل انتهاء الصيف؟».

- ليس لدي أي مانع، ولكن هل سيتسنى لك الوقت الكافي للاستعدادات.

أجابت وهي تضحك: «طبعاً، وسألتحق بالجامعة أيضاً، حسبما خططت... إذا كنت لا تمانع؟».

وأردفت بعد أن وافق بحماس: «ما رأيك بحلم أبي؟».

قال: «صبي وبنتان».

أومأت ستيفي برأسها بحياء.

سألها: «ما رأيك بكل ما يحصل؟».

- عظيم، عظيم جداً، وما رأيك أنت؟

مد تشارلز ذراعيه إليها وعانقها بقوة رجل بحث طويلاً عن الحب. ودفن وجهه في ثنية عنقها وتنفس بعمق: «كدت أفقدك مجدداً».

- لن تفقدني أبداً يا تشارلز. أحببتك منذ وقت طويل، ولا أعرف كيف أتوقف عن حبك.

منذ سنوات طويلة وهو جزء من كيانها فلم تعد قادرة الآن، أن تتخيل حياتها من دونه.

- أحبك يا ستيفاني. أعطيني الفرصة لأبرهن لك عن حبي.

بالنسبة لها، سبق وبرهن لها عن ذلك. عندما لم يسخر من حلم والدها... عرفت ما يدور في خلده، ربما لأن ذلك هو ما تفكر فيه بالذات. إنهما يحبان بعضهما البعض، وقررا أن يتزوجا، ولهذا لم يعد مهماً ما تنبأ به والدها بعد رحلته المزعومة إلى ما وراء الحياة. إنه الدرب الذي اختاراه سوياً.

همس تشارلز وهو يطبع قبلة على خدها: «ستيفاني، أمامنا الكثير من الوقت لنعوض ما فاتنا».

- سيستغرق ذلك خمسين سنة على الأقل، أليس كذلك؟

غمغم وهو يقبلها ثانيةً بنهم كاد يقطع أنفاسها: «هذا أقل ما يمكن».

***

استرخى دافيد بلومفيلد في الكرسي الهزاز على الشرفة الأمامية وعلى وجهه ابتسامة رضى.. كل شيء يسير كما قالت له غريس. أولاً ڤاليري... ثم ستيفي.

ازدادت ابتسامته اتساعاً.

يا للسماء! لقد تذكر أن مفاجأة هائلة تنتظر نورا.

***